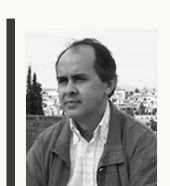

دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

باريز والباريزيون في رحلة الصفار

(١٨٤٥-١٨٤٦م)



أ.د. مصطفى غطيس
أستاذ التاريخ القديم
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد الملك السعدي – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

أعجب الصفار بباريز إعجابًا شديدًا، كغيره من أصحاب الرحلات المغاربة الآخرين الذين اكتشفوها من بعده، ففيها شاهدوا أمورًا لم يسبق لهم أن رأوها أو سمعوا بها قط في المغرب؛ وأطلعهم الفرنسيون على ما لم يعرفوا له اسمًا، وأروهم من المبتكرات ما اعتقد بعضهم أنه "من فعل الجان". ويبقى الشعور بالتفاوت هو السمة الأساسية المميزة لرحلات الصفار ومَنْ أتى بعده من المغاربة إلى باريز. وهذا التفاوت هو تفاوت بين واقعين ماديين متناقضين لمجتمعي دار الإسلام ودار الحرب، وهو أيضًا تفاوت بين عقلين، عقل ورثة عصر النهضة والأنوار الذين رأوا في الرحلة فرصة للتعلم وحك عقل الرحالة وصقله مع عقل الآخرين، كما ذهب مونطيني de Montaigne إلى ذلك؛ وعقل ظل حبيسًا لنسق ونمط تفكير عقيم لم يعرف التطور إليه سبيلاً. ورحلته هذه التي هي وليدة ثقافة عصره، مكنته من إزالة الحجاب عن ذاته، والبوح بأمور لم يكن ليبوح بها، هذا الفقيه "الشديد التحفظ" لولا السفر الذي أسفر عن وجهه وأخلاقه، فأظهر منها ما كان خافيًا. وكان بعض المثقفين المغاربة في القرن التاسع عشر قد وقفوا على غرائب مَدَنِيّة الغرب التي حيّرت منهم الأذهان، ووصفوا، عجائب مخترعات الفرنسيين والمسيحيين عامة، وردوها إلى "العقل الظلماني" الذي به يدرك الكفرة هذه المخترعات التي "أظهرها الله على أيديهم"، والتي يزدادون بابتكارها توغلا في كفرهم؛ وهذا العقل في زعمهم، نقيض "العقل النوراني" الذي يدرك بفضله المغاربة والمسلمون عامة المسائل المعنوية، كالإيمان بالله والملائكة... فلا أدري، إذا استثنينا بعض المغفّلين والأمّيين الذين كانوا ضمن أعضاء هذه البعثات (بشهادة العمراوي والجعيدي)، هل كانت عقول الصفار ومَنْ زار بعده باريز ووصفها من المغاربة عقول نورانية أم ظلمانية؟

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٠٧ مارس ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ١٩ يونيو ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:
باريس، رحلات المغاربة، الغريب والعجيب، المعتقدات، الصفار والباريزيات

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0053283

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
مصطفى غطيس ، "باريز والباريزيون في رحلة الصفار".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الواحد والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٨. ص٢٠٤ – ٢٢١.

مُقَدِّمَةٌ

لاحظ بومي (Beaumier)، المترجم الفرنسي الذي رافق البعثة المغربية إلى باريز، أن الصفار كان خلال مدة إقامته في العاصمة «مشغولاً طوال الوقت [...]. وهو بصدد إنجاز بحث حقيقي». وثمرة هذا البحث هي رحلته السفارية هذه التي لم تكن بالنسبة للخارجية الفرنسية إلا «فرجة استعراضية خالية من الجوهر». لكنها جسدت بالنسبة لصاحب النص إرادة حقة لمعرفة الآخر (المختلف ثقافيًا وفكريًا)، واكتشاف مجاله، ووصف ثقافته، من خلال ما رآه، وما سمعه، وما اطلع عليه – مترجمًا – في الصحف والمطبوعات الفرنسية؛ وهذا هو غرضه من هذه الرحلة[١]. فلقد كان طوال مقامه في باريز دائم المقارنة بين النظائر والأضداد، والمفاضلة بين الذات والغير، ناظرًا لكل شيء عند الآخر انطلاقًا من ثقافته وذوقه وملّته خاصة؛ لذلك نراه دائم الاستشهاد بالقرآن والحديث والمثل والشعر. فكيف اجتلى الصفار العاصمة الفرنسية، وما هي الصورة التي تشكلت لديه بخصوص الباريزين والباريزيات؟

بدأت رحلة الصفار السفارية[٢] إلى فرنسا يوم ١٣/١٢/١٨٤٥. ولقد وصلت البعثة المغربية إلى مرسيليا، بعد قضاء ليلة في ميناء بور بندر (Port-Vendres)، ثم استأنفت سفرها برا في اتجاه حاضرة باريز التي يسميها الصفار بـ «كرسي سلطنتهم وقرار مملكتهم[٣]»، و«هي قاعدة بلاد الفرنسيس وأعلم حواضرهم وكرسي مملكتهم[٤] ومسكن عظمائهم ومنشأ قوانينهم وشرائعهم ودار علومهم، بها يتفاخرون وفي سكاها يتنافسون، وبها وبأهلها في عوائدهم وآدابهم وحضارتهم يأتسون[٥] [=يتأسون]...». ولقد وصل أعضاء البعثة المغربية إلى باريز يوم الأحد ٢٨/١٢/١٨٤٥، وغادروها يوم الاثنين ١٦/٢/١٨٤٦[٦].

يَعتبر الصفار في توطئة رحلته أنه من الحزم لِمَنْ سافر وتغرب عن وطنه «أن يقيد كل ما سمع ورأى. لما قد يوجد في ذلك من العلوم والعبر، وما حصلت جم الفوائد إلا من مخالطات البشر[٧]». لذلك عزم على تدوين ما رآه وسمعه في رحلته إلى فرنسا[٨]، انطلاقاً من مرفأ تطوان. وظل وفيا لما سطره في بداية رحلته من أهداف لها؛ فلقد جعلها تذكرة لنفسه، ليخبر بها من سأله عن أحوال هذه البلاد من بني جنسه[٩]. لذلك نجده يخاطب القارئ -من بني جنسه-بقوله: «اعلم»[١٠]، أو «انظر[١١]»، أو «ولو رأيت[١٢]».

فطوال فصول الرحلة، كرر صاحبها أفعال رأينا، ورأيت، وأرونا، وشاهدنا، أو بصيغة النفي (لم نر)... وفيما يلي نماذج لمشاهدات الصفار في باريز، أو في طريقه إليها: «وقد رأينا في طريقنا[١٣]...»، «رأينا منها بباريز بيوتا كثيرة[١٤]...»، «ورأينا لهم بها صليبا[١٥]...»، «فرأينا فيه من الطبجيات والمدافع[١٦]...»، «أرونا كيفية حربهم بالمدافع في هذا المركب[١٧]،...»، « ولا يعرف حقيقة ذلك إلا من شاهده[١٨]». «فصل في ذكر مدينة باريز وما يتعلق بها مما شاهدناه بها[١٩]...»، «وهذه أشكال القناطر في هذه المدينة وفي غيرها مما رأينا[٢٠]، ... »، «فهذه المدينة بالنسبة لسائر بلاد الفرنسيس التي رأيناها[٢١]...»، «ولم نر مثل أكداشها ولا مثل خيلها في سائر بلادهم[٢٢]». «وبالجملة فهذه المدينة بالنسبة لسائر بلاد الفرنسيس التي رأيناها[٢٣]...»، «ولم نر مدة إقامتنا ببلادهم[٢٤]...»، «رأيت في كَازيطة من كَوازيطهم[٢٥]...»، «ومضوا وتركوا قلوبنا تشتعل نارا، لما رأينا من[٢٦]...»، «ومن أعجب ما رأيناه[٢٧]...».

وبالنسبة لما سمعه الصفار خلال سفره، أو ما أُخبر به، أو قيل له، فإنه استعمل الصيغ التالية: «وأخبرني بعض أهلها... »، «وأخبرني شخص آخر[٢٨]...»، «وذكر الرفعة أفندي في رحلته[٢٩]»، «وسمعنا على لسان غير واحد من أهلها[٣٠]»، «وسمعنا عنهم في هذا العام[٣١]، ... »، «وقيل[٣٢]...»، «و ما خلص إلينا علمه[٣٣]...». وعندما لا يتمكن الصفار من التحقق من معطياته، فإنه يصرح بذلك قائلاً مثلاً: «ولم أقف على تحقيق فيما يُعطى عليه عندهم وما لا،[٣٤]...»، كما أنه كرر عدة مرات « زعموا أنه»[٣٥]، أو «يزعمون أن...[٣٦]».

ولم يسم صاحب الرحلة فرنسا دائمًا باسمها، بل استعمل في وصفها أيضًا «هذه البلاد[٣٧]»، أو «هنا[٣٨]». وفي حديثه عن الفرنسيين عامة، والباريزيين خاصة، استعمل: «هؤلاء القوم[٣٩]»، أو «عندهم» التي كررها مرارًا[٤٠]، والتي تقابلها «عندنا». فالفرنسي والباريزي هو ذلك "الآخر" الذي يرى الصفار - "الذات"- « أنه مخالف لها أو مختلف عنها[٤١]». وتحدث عن بعض طباع الباريزيين كالخفة، والطيش، والحدة، والشراسة، والأنفة، وحب الرياء، والفخر، وذكاء العقل، وحدة الذهن، ودقة النظر، والظرافة والرقة، والأدب -حتى مع خدامهم[٤٢]- والحضارة، والمروءة الدنيوية، وعدم قنوعهم في معرفة الأشياء بالتقليد، وهم أصحاب جد في بيعهم وشرائهم وسائر معاملاتهم وتصرفاتهم،... فتجده يردد كلما وصف ذلك: «ومن طبعهم[٤٣]...»، أو «من أوصافهم أنهم[٤٤]...».

ويقارن الصفار في عدة حالات بين ما شاهده في باريز وبيوتها وأسواقها...، و«عوائد الفرنسيس وأحوالهم وأمورهم[٤٥]» عامة، وبين بلده، مستعملاً أحيانًا كلمة "عندنا" للدلالة على المغرب. فهو صاحب رحلة، وسواء شعر أم لم يشعر، وجد نفسه ينظر إلى الأشياء انطلاقاً من ثقافته وذوق جمهوره وقرائه[٤٦]: «وأما أشكال دورهم [الباريزيين] فإنها مخالفة لشكلنا،...[٤٧]»، «ولا تجد عندهم في أعراصهم هذه [في باريز] شيئا من أشجار الفواكه، أو دوالي العنب أو نَور له رائحة طيبة أو نبات مما نألفه في أعراصنا كالنعناع...[٤٨]»، «...وأرضهم على الجملة ليست أرض خصب وكلأ كأرض المغرب، إنما هي أرض صلبة قرعة خشنة،[٤٩]»، «وهذه المدينة [باريز] غاصة بأهلها، وهي بالنسبة لغيرها من بلدانهم بمنزلة يوم السوق عندنا مع الأيام التي لا سوق فيها، [٥٠] »، «... وهذا حمّامهم، وليس عندهم حمام على شكل حماماتنا[٥١]»، «وحوانيتهم كلها على شكل واحد في زخرفتها وأبوابها وزجاجاتها، ... وكلها متصلة بالأرض وليست مرتفعة عن الأرض كحوانيتنا[٥٢]»، «ولا يعجنون الخبز في ديارهم كما عندنا[٥٣]»، «فسعر الخبز الجيد أربعة صُلدي للرطل، ولا يباع بالعدد كما عندنا[٥٤]»، «ولكن شمعهم قليل الضوء، فالشمعة الواحدة من شمعنا تضيء كما تضيء ثلاثة أو أربعة من شمعهم[٥٥]»، « وليس عندهم الأتاي (الشاي) الجيد بل ولا المتوسط، إنما أتايهم (شايهم) حشيش يابس لا مذاق فيه للأتاي (للشاي) المعروف [في المغرب]، ولولا الحليب ما كان يشرب ولا اعتناء لهم به[٥٦].»، وطعامهم كله لا لذة له، وإن ملَحوه وفلفلوه[٥٧]، إلا فواكههم وحلاويهم، فهي «حسنة

لذيذة المذاق[٥٨]»، «وآلاتهم وغناؤهم لا يطربنا ولا يهزنا[٥٩]»، «وليس لهم بيت مال يجمعون فيه المال كما عندنا،[٦٠]».

كما يقارن في بعض الحالات دون أن يستعمل (عندنا) أو الضمير المتصل "نا"، فسياق الوصف في هذه الحالات، هو الذي يوحي بأن الرجل يقارن بما اعتاد عليه الناس في المغرب من مأكل ومشرب وملبس ومركب... فالمسافر الفرنسي مثلاً لا يمتطي الدابة كنظيره المغربي «بسرج ولا بردعة ولا غير ذلك، ... وإنما السفر هنا في الأكداش والكراريص والخيل تجرها، وهي على أشكال وأنواع[٦١]». كما أنه لم ير «أحدًا يخوض نهرًا بدابته ولا برجليه أبدًا[٦٢] »، وهو ما اعتاد الناس القيام به في المغرب. والطرق في فرنسا تختلف تمام الاختلاف عن طرق المغرب، فالفرنسيون لا يسلكون إلا طرقًا ذللا، لأنهم يولونها اعتناءً كبيرًا ويُعبِّدونها ويصلحونها ويتعهدونها، فتصبح والحال هذه مستوية مسطحة... «فالطريق عندهم كأنها سطح بيت لا يوجد فيها خضخاض ولا حفر ولا شوك ولا حجر ولا غير ذلك[٦٣]»، كما هو الشأن بالنسبة للطرق المغربية التي لم تكن قد عُبِّدت بعد، وهو ما يفسر انبهار الصفار بها. ثم إن السفر في هذه الطرق المعبدة، بخلاف المسالك الوعرة في المغرب، يمكّن المسافر من التنقل ليل نهار في ظروف لا مشقة وفيها لا تعب، بفضل الأمان التام الذي يسود مناكب فرنسا، «فلا يخشى المسافر من لص ولا قاطع طريق ولا متعرض[٦٤]». ومدن فرنسا، بخلاف نظيراتها المغربية، لا تغلق أبوابها ليلاً، «وغالبها لا سور لها ولا أبواب، ففي أي وقت وصلتها تدخلها[٦٥]».

ولقد طرح مقام الصفار في باريز بعض الصعوبات الناتجة عن الاختلاف البيّن بين نمط عيش المغربي والفرنسي. فالمنازل الباريزية لم تجهز ببواليع لتصريف ماء الوضوء، الشيء الذي كان يعرقل هذه العملية، ويجبر صاحبنا على الاحتيال حتى تتم عملية التوضؤ بصعوبة. ويفسر الصفار سبب افتقار هذه المنازل للبواليع بعدم حاجة أصحابها لإهراق ماء الوضوء[٦٦]! وشوارع باريز شاسعة جداء، وممهّدة، وتخضع لنظام معين، بحيث أُعدت الأرصفة على الحواشي للمشاة، وفُرش وسطها بالحجارة المنجورة لسير الأكداش. وهي تختلف عن أزقة المدينة المغربية، فلا يعلوها روشن ولا ساباط، إذ لو سُقّفت كنظيراتها المغربية لأظلمت البيوت المشرفة على هذه الجادات[٦٧].

والعاصمة الفرنسية دائبة الحركة، وهدير الأكداش والكراريص بها لا يفتر ليل نهار، وكأن خيلها لا تصفن أبدا[٦٨]، وهو ما فاجأ الصفار المتعود على هدوء المدينة المغربية وسكونها ليلاً. ولعله استحضر الآية: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[٦٩]، خلال أرقه بسبب ما يسميه بالهول والفرقعة وارتعاد واهتزاز زجاج النوافذ المطلة على هذه الجوادّ التي لا تعرف معنى السبات[٧٠]. وحوانيت باريز تختلف هي أيضا عن حوانيت المغرب، ولا تخضع لتوزيع معين حسب الأسواق المختصة في بيع هذا المنتوج أو ذاك، كما كان الحال في المدينة المغربية، «فتجد حانوت اللحم والسمك مجاورة لحانوت البز والجواهر ونفيس السلع، وهما في النظافة سواء[٧١]».

حاضرة وسكان في غاية النظافة

لقد لفتت ظاهرة نظافة العاصمة الفرنسية انتباه الصفار، خارج البيوت الباريزية وداخلها، فكل ما تحتويه هذه الحاضرة في غاية النظافة، سواء تعلق الأمر بسكانها أو أكداشها أو حيواناتها! فللباريزيين «اعتناء تام بالنظافة الظاهرة في بيوتهم[٧٢] وأزقتهم[٧٣] وحوانيتهم وأبدانهم وملابسهم، ...»[٧٤].

وكرر الصفار مرارا ملاحظاته بخصوص هذه الظاهرة، في كل المجالات التي ارتادها في العاصمة وأرباضها. وكان قد وصف البيت الفرنسي بمختلف مرافقه وأثاثه وزخرفته ومحتويات غرفه. ولاحظ أن فراش هذه الغرف المعدة للنوم، «بغطائه ووطائه وستوره، في غاية النظافة واللين[٧٥]». وحتى الإناء المعد للبول نظيف، وكذلك "الفويطات" المخصصة للتنشف، فهي نقية[٧٦]. ولم تفت الصفار ملاحظة سُمُط الموائد التي أكل حولها خلال المآدب التي استدعي إليها، والتي كانت ناصعة البياض، في غاية النظافة[٧٧]. ووصف هذه المآدب وما قدم فيها من طعام وشراب، ولاحظ أن الأطباق تغير بعد الانتهاء من تناول كل صنف من أصناف الطعام التي يتم تقديمها خلال الوجبة، «ويرون أن ذلك أبلغ في النظافة[٧٨]». وأكداش باريز، أيضًا، كلها في غاية النظافة[٧٩]. ولما زار حديقة حيوانات باريز، استرعى انتباهه نظافة الزرافة[٨٠]... وخلال زيارته لمدرسة من مدارس باريز، قال وهو يصف مرافقها «... والكل في غاية النظافة والإتقان[٨١]»، بل حتى حبوبهم وبعض فواكههم تجدها في غاية البياض والصفا، كالقمح الباريزي مثلا[٨٢]، أو تفاحهم وإجاصهم، «وهما في غاية من الصفاء سالمان من الآفات»[٨٣].

كيفية تنزه الباريزيين ونشاطهم وحرصهم على التكسب

يختلف تنزّه الباريزيين عن تنزّه المغاربة الذين افتقروا آنذاك إلى متنزهات على شكل حدائق عمومية كتلك الموجودة في العاصمة الفرنسية. وفيها شاهد الصفار الناس، رجالاً ونساء، آخذين بأيدي بعضهم البعض، هذا مع صاحبه وذاك مع خليلته، يتماشون «وهم يتحدثون وينظرون[٨٤]». ويأبى صاحب الرحلة إلا أن يقارن ما رآه من تفسح الباريزيين في هذه المتنزهات بتنزه

ذويه قائلاً: «وليست نزهتهم بالأكل والشرب بل ولا بالجلوس[٨٥]»، كما هو الشأن في المغرب.

ولقد بدا الباريزيون للصفار كأنهم شعلة نشاط، يكدون الليل والنهار لا يفترون، ولا يجلسون إلا في وقت الأكل[٨٦]، وبمجرد ما يفرغون منه ينتصبون واقفين. بل حتى خلال أكلهم، لاحظ الصفار خلال زيارته لإحدى المدارس الباريزية، أن تلاميذها ينصتون وهم يتناولون طعام الغذاء لقارئ يتلي عليهم فصولاً من كتاب ما، في علم التاريخ ونحوه، لئلا تذهب تلك اللحظة ضائعة[٨٧]. فالجلوس، في نظره، عندهم عيب، ولا يقعد منهم إلا النساء[٨٨]، وذلك حتى خلال الحفلات والمآدب التي حضرها الصفار بين الملأ. فهم يتقدون نشاطا لحرصهم على التكسب؛ «رجالهم ونساءهم لا يتقاعدون ولا يكسلون، والنساء مثل الرجال في ذلك أو أكثر. ولا تجد أحدا منهم خاليا عن شغل،[٨٩] ...». «ومن حرصهم على التكسب، أنك لا تجد عندهم فقيرا قادرا على الشغل يسأل الناس ويمنعونه من ذلك، ويرون أن إعطاء القادر على الشغل فيه إعانة على الكسل وعدم التكسب[٩٠]».

وإذا جلس الباريزيون فإنهم لا يفعلون ذلك كالمغاربة، فهم لا يعرفون اقتعاد البسيطة، ولا يجلسون إلا على الكراسي إن هم جلسوا. ولم ير الصفار طوال مدة إقامته بفرنسا أحداً منهم جالسًا على الأرض مباشرة. ويرى أنهم لا يفعلوا ذلك لأن لباسهم لا يطاوعهم نظرا لضيق سراويلهم، ثم إنه ليس من عادتهم خلع النعال إلا إذا دخلوا فراش النوم[٩١] ! وعلى الرغم من كون الباريزيين يدأبون في عملهم، «ولا تراهم إلا بعضهم يموج في بعض[٩٢]»، كـ "العفاريت"، على حد تعبير العمراوي، فلا ازدحام أمام المتاجر، على الرغم من كبر المدينة وارتفاع عدد سكانها وكثرة الحركة فيها، و«لا تجد شيئًا عندهم بالازدحام عليه[٩٣]»، مع أنهم لا يدخرون القوت في منازلهم، كالمغاربة.

ضبط الباريزيين لأمورهم وترتيبها

ولقد انتبه الصفار إلى ضبط الباريزيين والفرنسيين عامة لأمورهم غاية الضبط. وكرر هذه الكلمة مرارًا وقرنها بالحزم والإتقان وعدم الغفلة في الأمور والاستعداد لها قبل أن تنزل بهم، والترتيب الحسن ووضع الأشياء في محلها، وبناء أمورهم كلها على أصح أساس[٩٤]. وكما كرر كلمة "ضبط" مرارًا، فإنه ردد أيضًا كلمة "ترتيب" طوال رحلته، سواء تعلق الأمر بالمدافئ الزراعية الباريزية التي وضعت فيها الأصص التي زرعت فيها أشجار البرتقال على أحسن ترتيب[٩٥]، أو بالجيش[٩٦]، أو بالطعام[٩٧]، أو بالمكتبات الباريزية وكتبها المسفّرة الحمراء الجيدة، والمرتبة أحسن ترتيب[٩٨]. ويقترن الترتيب في رحلة الصفار بوضع الأشياء في محلها، وهي الجملة التي كررها كلما تعلق الأمر بالجيش الفرنسي الذي، نظراً لتنظيمه المحكم، برًا وبحرًا، كان يلفت إليه أنظار الصفار ومرافقيه[٩٩]. وأضاف الصفار لخصال الباريزيين والفرنسيين التي ذكرنا بعضها، حسن تدبيرهم وإتقانه، والتبصر العام بأمور دنياهم[١٠٠]، واستعدادهم للأمور قبل أن تنزل بهم[١٠١]. كما لاحظ صاحب الرحلة النظام[١٠٢] الذي يميز حياة الفرنسيين في باريز وغيرها من الحواضر الفرنسية، وهو ما لم يتعود عليه في بلده. ألم يقل الجعوي بعده ببضعة عقود «إن أبغض شيء لمغاربة النظام، اسمه ومسماه»[١٠٣].

التدوين

أظهر الصفار حب استطلاع كبير خلال مقامه الباريزي، وسجل أموراً كثيرة في أوراقه تسجيلاً مفصلاً. فلم تفته مثلاً ملاحظة الدواة والقلم، وسائر آلات الكتابة في البيوت الباريزية كلما زارها ووصف محتوياتها[١٠٤]، وهي الآلات التي كانت منعدمة في معظم البيوت المغربية، بل وحتى في بعض إدارات المخزن (الدولة المغربية) في مطلع القرن العشرين، كمشوية القصر الكبير مثلاً، لما زارتها الكاتبة الإنجليزية فرنسيس مكنب (Frances Macnab) في أبريل ١٩٠١[١٠٥]. كما لاحظ خلال زيارته لدار "الإصطنبا"[١٠٦] أن عمالها دؤوبون على عملهم، نشاطهم لا يفتر، وتعجب للعدد الهائل من الكتب الذي يخرج من هذه المطبعة، متسائلا أين تدخل هذه الكتب؟ ثم يجيب نفسه بنفسه قائلاً: «ولا ترى عندهم مكانًا خاليًا من الكتب، لهم بها استيناس واستفادة[١٠٧]». فالباريزيون كلهم يعرفون القراءة والكتابة، ويدونون في الكتب كل ما يسمعونه أو يرونه أو يستنبطونه أو يبلغ إليهم علمه، ويحفظونه في دواوينهم على مر الأيام[١٠٨]. ولا يتكلون على حفظهم - كالمغاربة - في شيء من الأشياء خوف النسيان والضياع كما قيل:

العلم صيد والكتابة قيده ... قيّد صيودك بالحبال الموثقة[١٠٩]
ومن الجهالة أن تصيد حمامة ... فتتركها بين الأوانس مطلقة[١١٠]

وأورد الصفار عدد سكان باريز خلال مقامه بها (مليون نسمة)، - ولا إحصاء آنذاك لسكان الحواضر في المغرب - مبديا عدم استغرابه بتعداد الفرنسيين لسكان عاصمتهم - وباقي مدنهم - لأن كل من ولد أو مات فيها، أو قدم إليها أو سافر منها، يكتبونه ويزمونه، وهذا شغل من هو متصد لذلك على الدوام، وكذا دأب غيرهم من سائر الروم[١١١]. وتربية الباريزيين والفرنسيين عامة، بما فيها احترام الآخر (الغريب)، كيفما كان جنسه أو دينه، تعتمد اعتماداً كبيرًا على ما يتعلمونه ويقرؤونه في الكتب، لتكون لهم بذلك المزية على غيرهم[١١٢]. والاهتمام الكبير بالقراءة والكتابة لا يقتصر على الخاصة، بل يشمل حتى أصحاب الحرف. فلإتقان صنعته، لابد للحرفي أن يكون عارفًا بالقراءة والكتابة، ثم إنه مطالب بالإبداع في صنعته والإتيان فيها

بالجديد الذي لم يسبق إليه، وهذا لعمري لن يتأتى له إلا بالقراءة والكتابة[١١٣].

وهم لا يكتفون بمعرفة الأشياء بالتقليد، بل يجربون، «ففي التجريب علم الحقائق[١١٤]»، ويبحثون عن أصل الشيء ويستدلون عليه ويقبلون فيه ويردون[١١٥]. والعالم عندهم ليس هو عالم الدين[١١٦]، كما كان يعني ذلك هذا المصطلح في المغرب حينئذ، أو القسّيس الذي يعرف أصول دين النصرانية وفروعها، بل هو المنكبّ على «العلوم العقلية الدقيقة»، والذي «من له القدرة على استكشاف الأمور الدقيقة واستنباط فوائد جديدة، وإقامة الحجج السالمة من الطعن على ما أبداه، وردّ ما عارضه به من عداه[١١٧]».

وذكر الصفار بعض هذه "العلوم العقلية الدقيقة" التي يتعاطاها الباريزيون والفرنسيون عامة، كعلم جرّ الأثقال[١١٨]، والحساب والهندسة، وعلم الفيزياء، وعلم الكيمياء الذي مداره على علم معرفة طبائع ذوات الأشياء، كجذب المغناطيس الحديد وتموج الهواء بالصوت الذي يسير فيه، وغير ذلك مما لم يعرف له اسما[١١٩]. وكيفية التصوير والتشريح[١٢٠]... وعلم التجارة عندهم كذلك من جملة العلوم التي تدرس[١٢١]؛ بل حتى القفز على الأشياء المرتفعة كحبل ممدود وغير ذلك مما يعد عند بعض الناس لعبا، هو عندهم علم من العلوم يقرأ ويدرس ويتعلم بالكيفية حسا[١٢٢]. ولهم مدارس حتى في علوم الطبخ والغرس والبناء والزراعة ومعالجة النباتات وإنتاج الحيوانات وغير ذلك[١٢٣]. وتعلم هذه العلوم لا يوجد إلا عند هؤلاء القوم[١٢٤].

الغريب والعجيب في مشاهدات الصفار

وقف الصفار مرارًا خلال مقامه الباريزي أمام مشاهد استغربها ورآها في تعجب. واستعمل تارة "عجيب"، وتارة "غريب"، وفي بعض الأوصاف استعملهما معا ليعبر عن مدى تعجبه وانبهاره بما رآه. فمن بين حكم الباريزيين العجيبة "ضوء اسبيريطو" الذي «من عجيب أمره أنه لا ينطفئ ولو نفخت عليه بمنافخ الدنيا[١٢٥]...». ونعت رقص راقصات مسرحية غنائية في "التياترو" بالعجيب[١٢٦]. ووصف الديكور المسرحي بعد رفع الستار، خلال أحد العروض الثلاثة التي حضرها ما بين ١ و٧ فبراير ١٨٤٦، بالصور العجيبة والأشكال الغريبة[١٢٧]. ثم يخاطب القارئ بإحدى الصيغ التي رأينا، وكأنه يريد منه أن يشاركه تعجبه قائلاً: «... ولو رأيت سيرتهم وقوانينهم لتعجبت منها غاية العجب[١٢٨]». ونراه يقرن بين الغريب والعجيب كلما شاهد مخترعًا من مخترعات الفرنسيين التي لم يسمع بها من قبل. وهكذا قال بعد زيارته لدار الفيزياء: «وفي هذه الدار آلات غريبة وأشكال عجيبة[١٢٩]». كما قرن بينهما لما حضر بصحبة الملك الفرنسي (Louis-Philippe) استعراضا للجيش أُبهر بنظامه، فكتب: «وما أقدرهم على الحروب وما أقواهم على عدوهم، لا بقلوب ولا بشجاعة ولا بغيرة دين، إنما ذلك بنظامهم العجيب وضبطهم الغريب،...»[١٣٠]. وجسور باريز المستحدثة غريبة الشكل[١٣١]، شأنها شأن الشمس الباريزية الغريبة كل الغرابة زمن الشتاء[١٣٢].

المعتقدات

لما زار الصفار "دار الكتب" في باريز، اطلع، من بين ما اطلع عليه فيها، على بعض الكتب العربية بخطوطها المختلفة، المطبوعة منها والمخطوطة، وكان من بينها مصحف كبير الحجم يحمله شخصان، خطه مشرقي «لم يرَ مثله حسنا وبهجة ورونقًا وكمالاً. ولا يوصف ما فيه من الحلية والذهب[١٣٣]...». وتأثر صاحبنا لما رأى كتاب المسلمين المقدس بأيدي «الكفرة»، وإن كان «في غاية من الحفظ والصون، ولا يلحقه من الأذى إلا مس المشركين له[١٣٤]». فالباريزيان حاملاً المصحف، والمسيحيون عامة، كفرة ومشركون، انمحى نور الإيمان من قلوبهم، لأن الله أضل بعدله من كُتبت عليهم الشقاوة وكانت صفقتهم خاسرة، حسب الصفار[١٣٥]، الذي استغفر ربه في نهاية الرحلة لما أبصرت عيناه في باريز وفرنسا «من المناكر الشنيعة»، وسمعت أذناه «من الإشراك والكفريات الفظيعة، ومن مخالطة أهل الضلال[١٣٦]».

ومرجعية الصفار الدينية واضحة، فهي التي صبغت جل تمثلاته، انطلاقًا من أن «الأنا مؤمن طاهر، والآخر رجس من الشيطان، كافر عفن، محرم الاختلاط به ومجالسته، ... »[١٣٧]. وبالنسبة للمسلمين، فإن الله لا يقبل دينا من أحد سوى الإسلام، عملا بالآيتين: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ [١٣٨]﴾، و﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ[١٣٩]﴾؛ ومن ثَمَّ فدين الآخر مرفوض، ومُنتقص منه ومستهزأ به، لأنه غير مفهوم. فالحقيقة بالنسبة للمسيحي تنقلب إلى زعم في رأي الصفار، ومعتقد المسيحي باطل انطلاقًا من الآيات: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ[١٤٠]﴾؛ و﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[١٤١]﴾؛ و﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ[١٤٢]﴾. والصليب المنصوب في كنائس عبدة الأوثان-القائلين بالأبوة والبنوة-والذي يعبدونه ويعظمونه ويصلّون عليه، حسب الصفار، سيكسره عيسى عليه السلام عند نزوله، تكذيبًا لهم وإبطالاً لما يدعونه من تعظيمه ولإبطال دين النصرانية[١٤٣]؛ «... تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرًا[١٤٤]. وما زادتنا رؤية ذلك إلا تبصرًا

بكفرهم واطلاعًا على إبطال معتقدهم وسخافة عقولهم. فالحمد لله الذي هدينا للملة الحنيفيّة،... »(١٤٥).

الصفار والباريزيات

إذا كان الفرنسيون "سخاف العقل" في أمور دينهم، في رأي الصفار، فإنهم "حداد البصيرة" في أمور دنياهم، لما جبلوا عليه من الإتقان والحزم والضبط وحدة العقول وحسن الإعداد والتدبير. وهكذا فالفرنسي سخيف العقل وحادّ البصيرة في الآن نفسه، وهذا لعمري من أكبر تناقضات صاحب الرحلة الذي استغفر ربه مما رأت عيناه من المناكر ومخالطة أهل الضلال، وهو الذي أفاض في وصف مفاتن النسوة في باريز التي «لنسائها نصيب من الجمال والبياض وخصب البدن(١٤٦)»، وأبهره منهن رقة خصورهن ونحافتها، وثقل أردافهن... فتحير من شدة الوجد ولاذ بالشعر العربي(١٤٧) ليعبر عن افتتانه بهؤلاء النسوة العبال، ثم أنشد قول الشاعر:

أسيلاتُ أبدان رقاقٌ خصورها
وثيراتُ ما التفتْ عليه المآزر(١٤٨)

ولقد ولِه الصفار في مجالس حسان باريز، ونسي أنه بين المشركات الكافرات من أهل الضلال اللاتي شددن انتباهه، فوصف مفاتنهن وحليهن بدقة متناهية، وهام بهن أشد الهيام. وكلما أقبلت عليه إحداهن اشتهى أن يمسكها من خصرها مستحضرا أبيات أبي الفضل بن أبي الوفاء(١٤٩):

قد رق لي خصره المضنى فناسبني
فقلت خير الأمور الأنسب الوسط
وقد خفى الردف عني من تـثـاقـله
فقلت هذا على ضعفي هو الشطط(١٥٠)

ووصف صاحب الرحلة المجلس الذي "خفي عنه الردف من ثاقله" فيه، منشدا آخر أبيات أبي الحسن الجزار التي أوردها صاحب المستطرف في المجلد الثاني من مؤلفه:

في مجلس ضحكت أرجاؤه طربا
لأنه ببديع الزهر مفروش(١٥١)

وأردف هذا البيت ببيتين للبيطار(١٥٢):

يقولون هذه(١٥٣) أم عمر قريبة
دنت(١٥٤) بك أرض نحوها وسماء
ألا إنما قرب الحبيـب وبعده
إذا هو لـم يـوصل إليـه سواء

ثم بلغ قمة وصفه للباريزيات في الفقرة التالية التي نراه من خلالها قد تحير من شدة الوجد «ببنات الروم البارعات في الحسن والجمال، متجردات الأجياد والنحور، رقاق الخصور، ثقال الأرداف، عراض الصدر، يُخجلن بحسنهن الشموس والبدور. عليهن من الحلي والحلل ما لا يصفه واصف ولا يضبطه عارف، قد شمرن عن أذرع كأنهن البرق الخاطف، يبهرن العقول بلَماهن المعسول، ورشاقة القدود وحمرة الخدود، وثني الغصون وتليين المعاطف.... »(١٥٥).

ويبدو أن الفقيه الصفار الذي طلب من ربه أن يعيد للإسلام عزته، ويجدد للدين نصرته(١٥٦)، تناسى خلال الليلة الراقصة التي دعا إليها ملك فرنسا (Louis-Philippe) أعضاء البعثة المغربية إليها(١٥٧)، الآية: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...﴾(١٥٨)، لأن صواحب الخصور الرقاق والأرداف الثقيلة... أبهرن عقله، وحدق إليهن فرأى أن سواد العين والحاجبين معدوم عندهن، لذلك يزينهن لبس السواد ويواتيهن أكثر من غيره من الألوان... واستحضر وهو يصف ذلك بيتين لأحمد بن أبي فتي(١٥٩) :

رأيتك في السواد فقلت بدر | بدا في ظلمة الليل البهيم
وألقيت السواد فقلت شمس | محت بشعاعها ضوء النجوم

نظرة الصفار للفرنسين، الظاهر والباطن

لحص الصفار ما جاء في الكلمة التي ألقاها رئيس البعثة المغربية، عبد القادر أشعاش(١٦٠)، أمام ملك فرنسا (Louis-Philippe) في باريز، والتي ذكره فيها بما «يليق به مما فيه مداراته، وذكر ما وصل إليه من إحسانه والفرح به منذ حل في بلاده ودخل في ولايته. وكل ذلك من المدارات [هكذا] الواجبة في مثل ذلك المقام، ودارهم ما دمت في دارهم إلخ،(١٦١)». والمداراة هنا هي مداراة العدو وخداعه ومصانعته ومراوغته، اتقاءً لشره. ألم يقم الملك الفرنسي باستدعاء أعضاء البعثة المغربية لحضور استعراض الجيش، وكان ذلك حسب الصفار، إكرامًا لهم واعتناء بهم في الظاهر، وزيادة في تبكيتهم والتنكيت عليهم في الباطن(١٦٢). وقبيل مغادرة البعثة المغربية فرنسا، في طريق رجوعها من باريز، توجه الفرنسيون بأفرادها إلى أكبر قواعدهم البحرية على البحر المتوسط، مرسى طولون (Toulon)، لحضور مناورات عسكرية على متن إحدى سفنهم الحربية التي يسميها الصفار بالنابيوس (كلمة إسبانية: **navío**)، لأن الفرنسيين، في رأي صاحب الرحلة، يحبون اطلاع "الآخر" على ما عندهم، جليلاً كان أو حقيرًا. وفعلهم هذا كان، حسب الصفار، «في الظاهر فرحة، وفي الباطن تخويف وقرحة، مع أنّا والحمد لله لا نخافهم وإنما نخاف الله»(١٦٣). فاستعراض القوات البرية والبحرية أمام البعثة المغربية لم يكن إلا نية مبيّتة قصدها " تبكية أعضاء الوفد المغربي والتنكيت عليهم، وتخويفهم وتقريحهم...".

وبالتالي، فالفرنسيون قوم كفرة لا يؤمَنون ولا يمكن أن يُطمأن إليهم[١٦٤]. ولقد استحضر صاحب الرحلة وهو يتحدث عن مداراة الفرنسيين حديثًا نبويًا وأشعارًا قوامها التّضريس، وهو مبالغة في الضّرس، ومحاربة العدو، وترقيص القرد، والنار وإحراقها، واللعن؛ لعن المشركين وأهل الضلال.

ولنبدأ باللعن الذي يبرره الصفار بالحديث الذي أورده البخاري في صحيحه: «إنّا لَنَكْشِر [وليس نكثر كما ورد في نص الرحلة] في وجوه قوم قلوبنا تلعنهم[١٦٥]»، والقوم في هذا السياق هم الفرنسيون، ومداراتهم والتكشير في وجوههم «لا لوم فيه ولا عتاب»[١٦٦]. ثم يورد الصفار مجموعة من الأبيات الشعرية كلها تعالج موضوع المداراة ومراوغة العدو ومصانعته... ويبدأ ببيت زهير بن أبي سلمى، دون أن يسميه، مكتفيا بـ «ولله درّ من قال[١٦٧]»:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

وقال آخر[١٦٨]:

سالم إذا أنت لم تستطع محاربة
واغلب إذا أنت لم تقدر على الغلب
والق العدو بوجه باسم
حتى إذا انقلبت دنياه فانقلب

وقال آخر[١٦٩]:

فلله در امرئ[١٧٠] عارف
يجاري[١٧١] الزمان على فطنته
يجازي الصديق بإحسانه
ويبقي العدو إلى مدته[١٧٢]
ويلبس للدهر ثوب[١٧٣] الرضى
ويشطح[١٧٤] للقرد في دولته

وقال آخر[١٧٥]:

وإذا عجزت عن العدو فداره
وامزح لـه إن المزاح وفاق
فالنار للماء[١٧٦] الذي هو ضدها
تعطي النّضاج، وطبعها الإحراق[١٧٧]

خَاتِمَةٌ

لقد أعجب الصفار بباريز إعجابًا شديدًا، كغيره من أصحاب الرحلات المغاربة الآخرين الذين اكتشفوها من بعده، كالعمراوي والجعيدي والجوي والسايح والفاسي والناصري... الذين استشهدت بنصوص رحلاتهم كلما وصفوا ما سبقهم الصفار إلى وصفه في العاصمة الفرنسية، وقد كان بعضهم أكثر دقة في وصفه لها من الصفار. ففيها شاهدوا أمورًا لم يسبق لهم أن رأوها أو سمعوا بها قط في المغرب، وأطلعهم الفرنسيون على ما لم يعرفوا له اسما، وأروهم من المبتكرات ما اعتقد بعضهم أنه "من فعل الجان". ويبقى الشعور بالتفاوت هو السمة الأساسية المميزة لرحلات الصفار ومَنْ أتى بعده من المغاربة إلى باريز. وهذا التفاوت هو تفاوت بين واقعين ماديين متناقضين لمجتمعي دار الإسلام ودار الحرب، وهو أيضًا تفاوت بين عقلين، عقل ورثة عصر النهضة والأنوار الذين رأوا في الرحلة فرصة للتعلم وحك عقل الرحالة وصقله مع عقل الآخرين، كما ذهب مونطيني (Montaigne[١٧٨] de) إلى ذلك؛ وعقل ظل حبيسًا لنسق ونمط تفكير عقيم لم يعرف التطور إليه سبيلاً، وبقي يردد بعد الصفار أن بغض النصارى "من قواعد ديننا ومذهبنا"... وهكذا لم يحل مقام الصفار في عاصمة النور بينه وبين الموروث الشعري العربي الذي استعان به ليعبر عن افتتانه بالباريزيات، كما افتتن من قبله عمر بن أبي ربيعة، أوصف الشعراء لربات الحجال، بالمهفهفات الثقيلات الأرداف من غواني الحجاز. ورحلته هذه التي هي وليدة ثقافة عصره، مكنته من إزالة الحجاب عن ذاته، والبوح بأمور لم يكن ليبوح بها، هذا الفقيه "الشديد التحفظ" لولا السفر الذي أسفر عن وجهه وأخلاقه، فأظهر منها ما كان خافيًا.

وكان بعض المثقفين المغاربة في القرن التاسع عشر قد وقفوا على غرائب مدنيّة الغرب التي حيّرت منهم الأذهان، ووصفوا، عجائب مخترعات الفرنسيين والمسيحيين عامة، وردوها إلى "العقل الظلماني" الذي به يدرك الكفرة هذه المخترعات[١٧٩] التي "أظهرها الله على أيديهم"، والتي يزدادون بابتكارها توغلاً في كفرهم؛ وهذا العقل في زعمهم، نقيض "العقل النوراني" الذي يدرك بفضله المغاربة والمسلمون المسائل المعنوية كالإيمان بالله والملائكة... فلا أدري، إذا استثنينا بعض المغفّلين والأمّيين الذين كانوا ضمن أعضاء هذه البعثات (بشهادة العمراوي والجعيدي)، هل كانت عقول الصفار ومن زار بعده باريز ووصفها من المغاربة عقول نورانية أم ظلمانية ؟

الهَوامِشُ:

(١) ذكر الغزالي في **إحياء علوم الدين**، مع مقدمة في التصوف الإسلامي... بقلم د. بدوي طبانة، مكتبة ومطبعة "كرياته فوترا"، سماراغ، بدون تاريخ، ج٢، "كتاب آداب السفر"، ص. ٢٥٩: أن الإنسان لا يسافر «إلا في غرض والغرض هو المحرك».

(٢) هي رحلة سفارية كغيرها من الرحلات السفارية التي ازدوجت فيها «المهمة "الديبلوماسية" بصفة أخرى، هي صفة الاستكشاف وحب الاطلاع، وهي تعبير عن "إرادة المعرفة" كما يقول فوكو: معرفة "الآخر" واكتشاف ما في يده من أسباب التفوق والقوة»، انظر: سعيد بنسعيد العلوي، **أوربا في مرآة الرحلة**، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ١٢، الدار البيضاء، ١٩٩٥، ص. ٥٣.

(٣) **رحلة الصفار إلى فرنسا**، (١٨٤٥-١٨٤٦)، حققتها وقدمت لها سوزان ميللر، وعربها وشارك في التحقيق خالد بن الصغير، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ٢٠٠٧، ص. ١٢٥.

(٤) سبق رفاعة رافع الطهطاوي الصفار في نعت مدينة باريس بـ «كرسي مملكة الفرنسيس... وقاعدة ملك فرنسا»، انظر: **تخليص الإبريز في تلخيص باريز**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص. ١٠، ٣١، ٧٠، ١١٩.

(٥) **رحلة الصفار**، ص. ١٦٣، وص. ١٧٠-١٧١: «وبالجملة فهذه المدينة بالنسبة لسائر بلاد الفرنسيس التي رأيناها مدنا وغيرها كالحاضرة مع البادية، فكأن غيرها من المدن بالنسبة لها كله بادية»، وص. ١٩٨: «... حتى أن كبراء الأجناس يرسلون أولادهم لباريز لتعلم آداب الفرنسيس وتربيتهم، واختصت باريز بذلك لأنها دار ملكهم وأحضر بلادهم». ويسميها أحمد بن قاسم الحجري "أفوقاي"، **رحلة أفوقاي الأندلسي**، مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب (١٦١١ - ١٦١٣)، حققها وقدم لها: د. محمد زروق، ط ١، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ٢٠٠٤، ص. ٢٣: «مدينة بريش، وهي دار سلطنة الفرنج»...، و ص. ٥٢: «هي دار سلطنة الفرنج، وبينها وبين مدينة روان نحو الثلاثة أيام، وطولها خمسة آلاف وخمسمائة خطوة، وعرضها أربعة آلاف وخمسمائة خطوة، وبيوتها عالية... وكلها عامرة بالناس...» ؛ وانظر: إدريس العمراوي، **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، تقديم وتعليق زكي مبارك، طنجة، ١٩٨٩، ص. ٥٥ : «قاعدة ملكهم». وكان العمراوي قد قضى بباريز اثنين وأربعين يوما، وحل بها يوم الأربعاء ٢٠ يونيو ١٨٦٠، وغادرها يوم السبت ٢ غشت ١٨٦٠: ص. ١٠٠، وص. ١٢٤. ويسميها إدريس الجُعيدي السلوي في **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، حققها وقدم لها عز المغرب معنينو، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي ٢٠٠٤، ص.١٤٥: بـ «قاعدة باريس، ذات الحسن الفريد، الجامعة لما تشتهيه النفس في الأرض على وجه ما تحب وتريد، إذ هي كما قيل جنة الدنيا بلا منازع، ومأوى الحكماء والعقلاء والنبلاء بلا معارض...». محمد بن عبد السلام السايح، **أسبوع في باريس**، ص. ٩ من مخطوط الخزانة الحسنية: «... حللنا مدينة باريز، وما أدراك من باريز. بهجة الدنيا ومنبت الحضارة ومهد الرقي ومنبثق العلوم، ... ديوان المبتدأ والخبر، ومرآة ما حضر وما غبر»، وص. ١١: «وقضينا بهذه العاصمة العصماء أسبوعًا...». محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، حققها وقدم لها: سعيد الفاضلي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣، ص. ٥٠: «... ولما دخلنا هذه المدينة أخذت الدهشة بأبصارنا وقلوبنا لما شاهدنا من جمالها الباهر. "وصف باريز": هي عاصمة افرانسا، بل عاصمة العلوم العصرية والآداب الأوروبية، والأخلاق الجميلة، والأموال الجليلة، والظرافة واللطافة والكياسة والسياسة... وبالجملة فهي حلية معاصم العواصم، وأجمل مدينة قُطعت إليها أكباد الرواسم.»؛ ص. ٨٩: «وبالجملة، فباريز دار العجائب ومجمع الغرائب»؛ وص. ١٦٥: «وداع باريز». عبد الله الفاسي الفهري، **المسامرة المسماة بحديقة التعريس في بعض وصف ضخامة باريس أو بالغصون الكاسية بأزهار وصف الديار الباريسية**، المطبعة البلدية بفاس، ١٩١٦، ص.٥٠: «... وفوق هذا وذاك إنها ليست عاصمة مائة مليون من البشر، أربعون في أرضها وستون في المستعمرات، وإنما عاصمة معظم الخافقين بما فيها من المزايا...».

(٦) بخصوص سفارة الحاج عبد القادر بن محمد أشعاش إلى فرنسا سنتي ١٨٤٥- ١٨٤٦، راجع:

Caillé (J.), Ambassades et missions marocaines en France, *Hespéris Tamuda*, I, Fasc. 1, 1960, pp. 65 -67.

كان الهدف من سفارة أشعاش إلى باريز، حسب وزير الخارجية الفرنسي وقتئذ غيزو (M. Guizot)، «هو اتخاذ المغاربة فرجة استعراضية لا أكثر. ووردت في مذكرات كَيزو معطيات إضافية عن الجوانب السياسية للسفارة المغربية، فقدمها على أنها فرجة خالية من الجوهر وليس لها مدلول حقيقي»؛ انظر: **رحلة الصفار**، ص. ٥٥، وص. ٦٣: «ومن الأمور الأكيدة التي لا يتسرب إليها أدنى شك، هو أن أهم ما خلفته تلك السفارة من أثر حقيقي هو الرحلة في حد ذاتها».

(٧) **رحلة الصفار**، ص. ١١٤ -115؛ وانظر ص. ٧١: «كتب بومبي (Beaumier) إلى دو شاستو (de Chasteau) [القنصل الفرنسي] في طنجة بما يلي: «إن الفقيه... مشغول طوال الوقت. وإن لديه موهبة عقلية نادرة، وهو بصدد إنجاز بحث حقيقي، فقد كتب أشياء كثيرة». وانظر: أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٦، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، ٢٠٠٦، ص. ١٦٨، الهامش: ٥٢٨: «إلا أنه [محمد بن عبد الله الصفار] كان دؤوبًا على المطالعة لآخر عمره والمذاكرة،

حسبما يشهد له به ما هو مكتوب بهوامش ما اقتناه من الكتب آخر مدته».

(٨) يسمي الصفار فرنسا في رحلته "بلاد الفرنسيس" ص. ١٦٣؛ ١٧٠، ويعني بها أرض الفرنسيين، و"فرانسا". وتجدر الإشارة إلى أن اسم هذا البلد لم يرد سابقا إلا تحت عبارة "بلاد الفرنسيس"، كما تشهد بذلك نصوص الوثائق المخزنية. وحين حل الصفار بفرنسا وسمع بتسميتها الأصلية: فرانس (France)، شرع هو الآخر في استعمالها. انظر: المصدر السابق، الهامش ١، ص. ١١٨-١١٩. وبالنسبة للفرنسيين، فإنه يسميهم بالفرنسيس: نفسه، ص. ١٦٣؛ ١٩٨.

(٩) المصدر السابق، ص. ١١٥. وذهب الجحوي مذهب الصفار في رحلته، فقيد ما شاهده في سفره «... لإفادة أهل المغرب الذين لم يرحلوا ولم يعرفوا شيئًا من أحوال أوربا...»، انظر: الحجوي، **الرحلة الأوروبية (١٩١٩)**، ص. ٣١.

(١٠) **رحلة الصفار**، ص. ١٢٧؛ ١٦٣؛ ٢٠١.

(١١) نفسه، ص. ٢٣٩.

(١٢) نفسه، ص. ٢٣٣.

(١٣) نفسه، ص. ١٣٧.

(١٤) نفسه، ص. ١٣٩.

(١٥) نفسه، ص. ١٤٨.

(١٦) نفسه، ص. ١٦٠.

(١٧) نفسه، ص. ١٦١.

(١٨) نفسه، ص. ١٦٢.

(١٩) نفسه، ص. ١٦٣.

(٢٠) نفسه، ص. ١٦٨.

(٢١) نفسه، ص. ١٧٠.

(٢٢) نفسه.

(٢٣) نفسه.

(٢٤) نفسه، ص. ٢٠١.

(٢٥) نفسه، ص. ٢٠٩، ويعرفها العمراوي بـ «ورقات الأخبار المسماة بالكّازطات»، انظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٨٠؛ وص. ٩٧: «ومما يستعينون به على أمور الصحافة التي يسمونها بالكّازطات، ويسمونها أيضًا الجرنالات...»؛ ص. ٩٩: «... وقد أحدثوا نوعا منها باللسان العربي، يخرج على رأس كل خمسة عشر يومًا يذكرون فيه لب ما تضمنته تلك، (...) فكنا نرى فيها العجب وكنا نعرف خبر العلم وحقائق البلدان وتفاصيل دولهم وغير ذلك ونحن في البيوت...». الجعيدي، **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٥١: «... وإنما ترى كل واحد جالسا على شليته يشرب الدخان وهو مشغول بكّزيطته. فما أعظم تولعهم بهذه الكّزيطات ! ولعلها عندهم من المفرحات المنشطات، وإن كانت هذه من ذلك القبيل، فصن نفسك عنها يا نبيل». وانظر: العباس بن إبراهيم السملالي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، ج ٣، ط ٢، الرباط، ١٩٩٧، ص١٨٣، الهامش ١: «جمع كّازيطة (La Gazetta)، الصحيفة في العامية المغربية القديمة، والكلمة مما دخل إلى اللهجة المغربية من اللغة الإسبانية. يقال إن بعض علماء المغرب الجامدين ألف في بداية هذا القرن الرابع عشر الهجري كتابا سماه "**الضرب بالزراويط على رأس من يقرأ الكّوازيط**".

(٢٦) **رحلة الصفار**، ص. ٢٣٣.

(٢٧) نفسه، ص. ٢٣٩.

(٢٨) نفسه، ص. ١٦٣.

(٢٩) نفسه. ولقد اعتمد العمراوي هو الآخر على كتاب رفاعة الطهطاوي وتأثر به، انظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٦٠: «... فقد كنت كذّبت في ذلك [غلاء ثمن الدور الباريزية وكرائها] حتى رأيته مذكورا في رحلة الشيخ رفاعة المصري»، ص. ٨٩: «وكنت أضحك من ذلك [الكمديات] وأعده من جملة المزاح الذي لا يعبأ به ولا يوبه له وأنه ليس من الجد في شيء حتى وقفت على كلام الشيخ رفاعة المصري في رحلته، حاصله أنها أمور جدية في صفة الهزل... ». وكان الشدياق قد صحح بعض معلومات الطهطاوي بخصوص باريز، انظر على سبيل المثال: أحمد فارس الشدياق، **كشف المخبا في فنون أوربا**، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ٢٠١٢، ص. ٢٨٨: «...ومن هنا يعلم أن ما ذكره الشيخ رفاعة بك من أن أهل باريس يقطعون من البيض بخمسة آلاف فرنك سهو، والظاهر أنه أراد خمسة ملايين...».

(٣٠) **رحلة الصفار**، ص. ١٦٤.

(٣١) نفسه، ص. ٢٦٣.

(٣٢) نفسه، ص. ٢٢١.

(٣٣) نفسه، ص. ٢٠٩.

(٣٤) نفسه، ص. ١٦٥.

(٣٥) انظر على سبيل المثال: صفحتي: ١٨٠ و٢٤٠، حيث كررها خمس مرات.

(٣٦) نفسه، ص. ١٧٦.

(٣٧) نفسه، ص. ١٢٧؛ ١٣٠.

(٣٨) نفسه، ص. ١٣٠.

(٣٩) نفسه، ص. ٢٠١، ٢٠٨، ٢١٨.

(٤٠) نفسه، ص. ١٣٢، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٢، ١٦٠، ١٦١، ١٦٥، ١٦٨، ١٧٦، ١٨٠، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٦٣.

(٤١) سعيد بنسعيد العلوي، **أوربا في مرآة الرحلة**، ص. ١١؛ وانظر ص. ١١-١٢: «الآخر إذن هو ذاك الذي تقضي الذات بمخالفته لها وتحكم باختلافه عنها في نظم الحياة كلها: في العادات، والتقاليد، والأذواق، واللسان، والدين... والفاحص، متى نظر في الصورة

التي ترسمها الذات للآخر، فإنه يتبين أن تلك الصورة مزيج غريب وغير متجانس من العواطف والأحكام: فقد تكون، في الوقت ذاته، تحمل مشاعر الاستبشاع والاستهجان والاستغراب من جهة، وتطفح بمشاعر الاستحسان والتقدير والتعظيم من جهة أخرى».

(٤٢) **رحلة الصفار**، ص. ٢٠٣؛ وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٦١: «... والخادم يعرض الآنية على كل واحد، فمن اشتهى شيئًا أكله ومَنْ لم يشتهه رده على الخادم وقال مرسي، وهي بمعنى كثر الله خيركم».

(٤٣) **رحلة الصفار**، ص. ١٦١، ١٧١، ١٩٦- ١٩٧.

(٤٤) نفسه، ص. ١٩٨.

(٤٥) نفسه، ص. ١٦٣.

(٤٦) بوشعيب الساوري، **الرحلة والنسق**، دراسة في إنتاج النص الرحلي، رحلة ابن فضلان نموذجًا، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ص. ٢٠. وحسب محمد الفاسي، فإن الرحال يصف ما يعرض له في سفره، ويذكر «الإحساسات التي يشعر بها أمام المناظر التي يمر بها، مع اطلاعنا على أحوال البلاد التي يزورها، وعلى عوائد أهلها وأخلاقهم وأفكارهم، وهو - في كل هذا - يعبر عن نفسه وعن عواطفه، وعن وجهة نظره الخاصة في كل مسألة»؛ انظر: محمد بن عثمان المكناسي، **الإكسير في فكاك الأسير**، تحقيق محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٥، ص١٠.

(٤٧) **رحلة الصفار**، ص. ١٧٥.

(٤٨) نفسه.

(٤٩) نفسه، ص. ١٤٢.

(٥٠) نفسه، ص. ١٦٤.

(٥١) نفسه، ص. ١٦٨.

(٥٢) نفسه، ص. ١٧٢.

(٥٣) نفسه، ص. ٢٠٨.

(٥٤) نفسه، ص. ٢٠٩.

(٥٥) نفسه، ص. ٢١٠.

(٥٦) نفسه، ص. ٢٠٩؛ وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ١٠١: «... وقد وجدنا [الوزير الفرنسي] لما ورد علينا نباشر شرب الأتاي، فأدنيناه له هو وحلويات حضرت من عمل مغربنا، فأكل وشرب... فكان بعد ذلك إذا زرناه في منزله يقدم لنا الأتاي بالحليب ويقول أنا تلميذكم في هذا الأمر...».

(٥٧) **رحلة الصفار**، ص. ٢٠٦.

(٥٨) نفسه.

(٥٩) نفسه، ص. ٢٢٢؛ وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص.٩٠: «... وقد عرضوا علينا الذهاب لبعض الكمديات فاعتذرنا في واحدة فيها الغناء والرقص بأن الغناء لا نفهمه، وما لا نفهمه يثقل علينا سماعه، وبأنه يحرم علينا في ديننا النظر إلى النساء التي يرقصن، وفي أخرى فيها المحاجات والأسئلة والأجوبة بأنها بغير لغتنا، فلا فائدة في حضورنا فيها». الحجوي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ٧٢-٧٣: «"وصف ملهى الأوبرا": أما الرواية التي مُثّلت، وما فيها من الفوائد، فذلك شيء ليس هو ذوقنا، بل لا نستفيد منه شيئا لعدم معرفتنا جميعا بلغة أهله، وعدم ملاءمته لمألوفاتنا وحركاتنا...». محمد كرد علي، **غرائب الغرب**، ج ١، ط ٢، مصر، ١٩٢٣، ص. ٢٠٩: «... ولكل أمة غناؤها قد تتبرم به الأمة الأخرى وتعده منكرا ولكنه يفيدها ويلذها كما ذكر ابن رندقة الإسكندري... في وصف أهل شلشويق، أي أهل (Schleswig-Holstein) في شمال ألمانيا، وقال إن لهم نوعا من الغناء يشبه عواء الكلاب، ولو فهم معناهم لما حكم هذا الحكم الذي يقوله اليوم أيضا كل من لا يعرف لغة غيره ولا تأثير موسيقاه وغناءه ومراميهما». حسين محمد فهيم، **أدب الرحلات**، "سلسلة عالم المعرفة"، عدد ١٣٨، يونيو ١٩٨٩، ص. ٩٠-٩١: «لقد كانت الرحلة العربية في الماضي شاقة بدنيا لبعد المسافات، وصعبة نفسيا لارتباط العرب بديارهم وأقوامهم، علاوة على أن ينتهي بهم الأمر إلى الحياة بين أناس لا يعرفون أدبهم أو حسبهم، فيجدون في مرافقتهم أو معاشرتهم كدرا. (...) ويبدو أن الرحالة المغاربة، بصفة خاصة، كان من الصعب عليهم فراق أرضهم، والابتعاد عن ذويهم وأهلهم».

(٦٠) **رحلة الصفار**، ص. ٢٦٣. والصفار كالشدياق الذي زار العاصمة الفرنسية من بعده، وكان مولعا بالمفاضلة وبمقارنة النظائر والأضداد من كل ما رأى في بلاده أو في بلاد زارها، كباريس مثلاً، انظر على سبيل المثال "الشبه والاختلاف بين باريس ولندرة"، و"خلاصة في المقارنة بين المدينتين"، و "ما يميز باريس عن لندرة": أحمد فارس الشدياق، **كشف المخبا في فنون أوربا**، ص. ٢٩٣-٣٠١؛ و ص. ٣٢٠؛ ٣٥٩-٣٦٥... وحسني محمود حسين، **أدب الرحلة عند العرب**، ط ٢، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣، ص. ٩٦. «وفي إطار المفاضلة بين الأقوام والحضارات وترسيخ الاعتقاد بأفضلية العرب على الجميع، جاء وصف الرحالة المسلمين القدامى، بصفة عامة، مشبعا بالتزيين لكل ما يتصل بثقافة الذات العربية الإسلامية والتقبيح لمسلك وتقاليد وعادات الغير (غير العربي أو المسلم)»؛ انظر: حسين محمد فهيم، **أدب الرحلات**، ص. ١٧٨. ألم يقل الطهطاوي أن العرب هم أفضل القبائل على الإطلاق، ولسانهم أفصح الألسن باتفاق... انظر: **تخليص الإبريز في تلخيص باريز**، ص. ٢٧. ويرى أبو حيان التوحيدي في حديث الليلة السادسة الذي جمعه بالوزير العباسي أبي عبد الله العارض، أن تفوق ثقافة أو حضارة على أخرى مسألة نسبية: «... وهذه مسألة - أعني تفضيل أمة على أمة-من أمهات ما تدارأ الناس عليه وتدافعوا فيه، ولم يرجعوا منذ تناقلوا الكلام في هذا الباب إلى صلح متين واتفاق ظاهر. (...) وإذا وقف الأمر على هذا فلكل أمة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسن ومساو، ولكل طائفة من الناس في

صناعتها وحلّها وعقدها كمال وتقصير، وهذا يقضي بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مُفاضة على جميع الخلق، مفضوضة بين كلهم.»؛ انظر: كتاب **الإمتاع والمؤانسة**، ج ١، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بدون تاريخ، ص. ٧٣.

(٦١) **رحلة الصفار**، ص. ١٣٠. وخلال مقام الحجوي في باريز التي وصلها يوم ١٩١٩/٧/١١، وغادرها يوم ١٩١٩/٧/٣٠، لاحظ تراجع عدد العربات التي تجرها الخيل والبغال، وقلتها بالنسبة للأتومبيلات؛ انظر: الحجوي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ٥٤.

(٦٢) **رحلة الصفار**، ص. ١٦٨.

(٦٣) نفسه، ص. ١٣٢.

(٦٤) نفسه، ص. ١٣٥.

(٦٥) نفسه.

(٦٦) نفسه، ص. ١٦٩: «... وليس في بيوتهم مهاريق للماء، فلا تجد مَنْ أين ترسل شيئًا من الماء ولا نقطة. وكان يشق علينا الوضوء لأجل ذلك، فكنا نحتاج أن نأتي بإناءين، أحدهما فيه الماء والآخر نتوضأ فيه مع مشقة واحتيال لصغر الإناء، ولأن أرضهم مفروشة بالزرابي إذا قطر عليها الماء أفسدها، وهم في غنية عن إهراق الماء فلم يستعدوا له».

(٦٧) نفسه، ص. ١٧٠؛ وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٥٧-٥٨: «وكيفية أبنيتهم مخالفة لهيئة أبنيتنا، كلها صالات بسراجب تشرف على جوانب الدار وأزقة المدينة، منها يأتي الضوء وكلها يدخل من بعضها لبعض...»؛ ص. ٦٢: ووصف العمراوي للشوارع الباريزية وترتيب السير فيها أكثر دقة من وصف الصفار: «... وشوارع هذه المدينة متسعة جدًا... وكلها مقومة لا اعوجاج فيها ولا حفر...». **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٥٢: «... وأما طرقها، فهي أعرض بكثير من طرق مرسيلية، والأشجار ممتدة معها من الجهتين، والفنارات بينها مرفوعة على أعمدة من النحاس المخروط المورق...». الحجوي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ٥٠: «... والشوارع الوسيعة، وطرق المواصلة الممهدة...»؛ ص. ١٢٣: «فشوارع باريز أوسع بكثير وأكثر استقامة [من شوارع لندرة]». عبد الله الفاسي الفهري، **المسامرة المسماة بحديقة التعريس في بعض وصف ضخامة باريس**، ص.٧٠: «سادتي، ماذا أصف لكم من هذا الوصف الإجمالي من أوصافها البديعة، أأصف لكم شوارعها الفسيحة...»؛ وص. ٣١:

«بأي باب وفصل من محاسنها   أتى الحدث لم يقنع بقرطاس
أعن شوارعها اللائي جرين على   بديع شكل وترصيف ومقياس...».

(٦٨) **رحلة الصفار**، ص. ١٧٠: «وكذلك خيل هذه المدينة كلها في غاية من الشبع وصفاء اللون وكبر الجثة وحسن الصورة، ولم نر مثل أكداشها ولا مثل خيلها في سائر بلادهم». **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص.٢٠٠: «وأما الخدمة أصحاب الأكداش ... فلا تفتر خدمتهم ليلاً ولا نهارًا، ... وأما في وسط النهار ومنتصف الليل، فتراهم بين غاد ورائح، كأن الحرب مشتعلة بينهم، وكل يجري حسب جهده وطاقته.».

(٦٩) **سورة النمل**، الآية: ٨٦.

(٧٠) **رحلة الصفار**، ص. ١٧١. ولقد استعمل العمراوي هو الآخر كلمة " الهول " لوصف الصوت الذي يحدثه تلاقي قطارين، انظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٤٥: «... ولقد كان يفزعنا الهول إذا لقينا بابور آخر محاذيا لنا لما نسمع لهما من الدوي ما له حس كحس الصواعق، لا سيما إذا التقينا في ظلام جوف جبل، فيحسب الإنسان أن ذلك الجبل واقع عليه». **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ٢٠٠-٢٠١: «وعند تزاحم الأكداش تسمع لمرورها صوتا هائلا كالبحر عند هيجانه أو صوت الرعد». الحجوي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ٨٢: «... فكنت أقصدها [مقهيا غابة بولون] عند ملل الفكر من القيود، والأذن من سماع هوس عربات النقل كالرعود، ...».

(٧١) **رحلة الصفار**، ص. ١٧٢؛ وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٩٦: «... فأما دكاكين التجارة عندهم بباريز فشيء من وراء العقول، كثرة سلع وترتيب وتزيين في أعين الناظرين...». الحجوي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ٥٢: «فإذا وصلت إلى مواضع التجارة ومخازن البضائع، فهناك يُبهَت طرفُك في نضارة المحل وزخرفته وجمال منظره ثم في منظر البضاعة وتنسيق وضعها: كل جنس مع جنسه ونوع مع نوعه، زد على هذا أن بضائع باريز هي من أحسن البضائع وأحدث المخترعات. وإذا نظرت إلى من يبيع وجدته نظيفا، ظريفا، ذا كسوة جميلة، ووجه بشوش، وأخلاق كريمة، وتربية حسنة وصبر وحذق فيكون ساحرا لك فتشتري منه رخيصًا أو غاليًا».

(٧٢) **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٨١: «... والمحل الذي هم فيه [دار العسكر العاجز في باريز] نظيف جدًا، لم نر فيه دنسا ولا شممنا رائحة مع كثرتهم هناك...».

(٧٣) نفسه، ص. ٦٢ -٦٣: «وفي كل يوم يكنسون تلك الشوارع ويرشونها بالماء بآلات أعدوها لذلك على كيفيات». **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٧٥: «... ثم قال [الضابط العسكري الفرنسي شلطون] كيف جاءتك بلدنا، فقلت: ما رأيت أحسن منها نظافة وتزويقا، وصنائع وعجائب لم أرها في غيرها»؛ وص. ٢٠١: «... فالمكلفون بتنظيف الطرق بالكنس والرش قائمون بذلك ليلاً ونهارًا لا يفترون». الحجوي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ٥٥: «حاصله أن شوارع باريز وطرقها غاية في النظافة والنظام لا تُلحق، ولا يرى الإنسان في قطر أو مدينة أحسن ولا أجمل ولا أوسع ولا أنظف ولا ألطف ولا أكمل من تلك الطرق».

(٧٤) **رحلة الصفار**، ص. ١٩٨.

(٧٥) نفسه، ص. ١٢٨.

(٧٦) نفسه، ص. ١٢٩.

(٧٧) نفسه، ص. ٢٠٢.

(٧٨) نفسه، ص. ٢٠٢-٢٠٣. وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٦١: «... ومن عادتهم ألا يأكلوا بأيديهم وإنما يتناولون الأكل بواسطة هذه الآلات ويبدلونها عند إبدال كل نوع من الطعام...». ووصف العمراوي للمائدة الباريزية و"آلات الأكل" أكثر دقة من وصف الصفار.

(٧٩) **رحلة الصفار**، ص. ١٧٠. وانظر: الحجوي، **الرحلة الأوروبية (١٩١٩)**، ص. ٥١: «... وحتى المركبات جميلة لطيفة مموهة بأدهان متنوعة ذات ألوان تأخذ بالأبصار، مجرورة بالأفراس أو النار، بل عربات النقل نظيفة والحيوانات التي تجرها لا ترى فيها عجفاء، ولا عرجاء ولا عوراء، ولا متسخة ولا بشيعة... فلا تقع عينك إلا على جميل».

(٨٠) **رحلة الصفار**، ص. ١٧٢، وقد وصفها العمراوي وصفًا دقيقًا، انظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٧٠. وبخصوص نظافة الإصطبلات، انظر: **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٧٧: «... وتقدمت [الخيل] قبلنا بقريب لأروى دار المخزن هناك يقوم بها العساكرية، فحين وصلنا لتلك الأروى وجدناها لا فرق بينها وبين ديارهم في البناء والنظافة، ...».

(٨١) **رحلة الصفار**، ص. ٢٥١.

(٨٢) نفسه، ص. ١٤٢.

(٨٣) نفسه، ص. ٢٠٦.

(٨٤) نفسه، ص. ١٧٦.

(٨٥) نفسه، وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٤٩-٥٠: «... على أنهم ما تمتعوا بها [الساحات الزهرية] تمتع لذة وانبساط، ولا ضربوا حول ذلك الوادي [الرّون] خباء زهور، ولا جلسوا للسرور على بساط، ... ولا جروا في تلك المنتزهات أطراف الذيول، وإنما يمرون فيها مرور العفاريت، ...».

(٨٦) **رحلة الصفار**، ص. ١٩٧. وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٦٠ -٦١: «وأوقات الأكل عندهم مؤقتة لا يؤخرونها ولو آتى منادي الوزير أو الحاكم لأحد في وقت الأكل يدعوه لا يجيبه ويقول إني آكل أو هو وقت أكلي فلا يمكنه إلا انتظاره...».

(٨٧) **رحلة الصفار**، ص. ٢٥١.

(٨٨) نفسه، ص. ١٩٧، وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٦٥: «... ومن عادتهم أنهم لا يعرفون الجلوس في البيوت إلا أوقات الحاجة أو الشغل أو النوم... وقد كانوا يكثرون التعجب منا حيث يروننا ملازمين البيوت ليلاً ونهارًا...»، وانظر: **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٧٥ -١٧٦: «... وحين فرغوا من الأكل خرجوا لقبة أخرى فيها شوالي عديدة، وكَابي كثيرة كلها بالموبرة الحمراء وصاروا واقفين كل اثنين أو ثلاثة منفردين في محل، وجلس صاحب السر على شيلية، ... وجلسنا نحن قريبين منه، ...». الحجوي، **الرحلة الأوروبية (١٩١٩)**، ص. ٨٥: «... وقف [وزير الخارجية Stephen Pichon] معنا ننتظر الطعام، على العادة الأوروبية من الوقوف قبل الطعام وبعده، وهي مصلحة بدنية وإرشاد طبي يعين على إبادة ما بقي في المعدة منه ليلًا يدخل طعام على طعام. وبعد الطعام يقفون أيضا ليعين على الهضم...».

(٨٩) **رحلة الصفار**، ص. ١٩٣.

(٩٠) نفسه، ص. ١٩٦. هذه الجملة منقولة عن الطهطاوي الذي جاء في كتابه: «... وأيضًا يرون أن إعطاء القادر على الشغل شيئا فيه إعانة له على عدم التكسب»، انظر: **تخليص الإبريز**، ص. ١٦٤. **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٩٤: «... ويذمون البطال عندهم ذما بليغا ويتهاجون بالبطال».

(٩١) **رحلة الصفار**، ص. ١٢٨، ٢٠١.

(٩٢) نفسه، ص. ١٩٧.

(٩٣) نفسه، ص. ٢٠٧.

(٩٤) نفسه، ص. ١٦٠، ١٦٢، ٢٦٣.

(٩٥) نفسه، ص. ١٣٩. وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٧٢: «... حتى أنهم جعلوا للأشجار والنباتات التي لا تنبت إلا في الأرض الحارة بيوتا من الزجاج عالية لا يصلها الهواء، فيها النخل والنارجيل... وشجر الأتاي... وشجر البن... ».

(٩٦) **رحلة الصفار**، ص. ١٦٠، ١٦٢، ٢٣٣: «...ومضوا وتركوا قلوبنا تشتعل نارا، لما رأينا من قوتهم وضبطهم وحزمهم وحسن ترتيبهم، ووضعهم كل شيء في محله، ...». **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ١١٩: «... فالذي ظهر لي من حالهم أن العسكر عندهم مثل الآلة في يد الصانع، يفعل بها ما يشاء، لا تخرج الكلمة من فيه حتى تمتثل، ولو أمرهم بقتل أنفسهم لفعلوا... وإذا وقفوا حسبتهم صورا بلا أرواح، ولقد رأينا بوابين بباب سلطانهم واقفين لابسين الحديد لا يتحرك فيهما عضو، فحسبهما بعض من كان معنا صورا... ».

(٩٧) **رحلة الصفار**، ص. ٢٠٣: «ولهم في الأطعمة ترتيب معلوم، ...»، وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٦١.

(٩٨) **رحلة الصفار**، ص. ٢٢٥.

(٩٩) نفسه، ص. ١٦٠، ١٦٢: «وإنما الذي لهم الاعتناء والترتيب الحسن ووضع الأشياء في محلها، ...»، ٢٣٣.

(١٠٠) نفسه، ص. ١٣٧، ١٦٠، ٢٦٥...

(١٠١) نفسه، ص. ١٦٠، وص. ٢٣٣ :«فما أحزمهم وما أشد استعدادهم».

(١٠٢) نفسه، ص. ٢٠٨: «ومما يستحسن عندهم، أنك لا تجد شيئا عندهم بالازدحام عليه، ...».

(١٠٣) انظر: محمد الصغير الخلوفي، **انحار المغرب الأقصى بيد ثواره**، دواعي الإصلاح والتنظيم، مذكرة الحجوي نموذج من الكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين، ط ٢، الرباط، ١٩٩٤،

ص. ٢٩ – ٣٠. وحول انشغال الحجوي بمسألة النظام في كتاباته (محاضرات وتقاييد وتآليف متنوعة)، انظر: سعيد بنسعيد العلوي، **أوربا في مرآة الرحلة**، ص. ٧٨-٧٩: «أعجب [الحجوي] بباريز أشد ما يكون الإعجاب؛ لا بل إنه سحر بها سحراً أكسب حديثه عنها بهاء ورونقًا ليس مما نعهده في كتابات الفقهاء. وفي ذلك كله ترد كلمة النظام ومشتقاتها كثيرًا... يمكن القول إجمالاً، إن هذا "النظام" الذي أعجب به الفقيه الحجوي الإعجاب كله، ورأى في وجوده العلامة الكبرى الدالة على التقدم والتفوق في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لبلاد أوربا هو نسق من الوجود تجتمع فيه جملة عناصر ومكونات». الحجوي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ٥٢: «... ولقد أعانهم على هذا وذاك اقتدار رجالهم العظماء وسعة معارفهم مع علوّ هممهم، وكمال النظام في الأعمال والأحكام، وما فُطر عليه أهلها عمومًا من الشغف بالنظام في كل شيء، وإتقان كل عمل يأتونه، ...».

(١٠٤) **رحلة الصفار**، ص. ٧١، ١٢٩-١٣٠؛ وانظر: **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٥٠: «[أوصاف هذه الصالات؛ شكل مطعم الفندق] ... فأخذت قلما من مكاتبهم الموضوعة هناك، وقيدت بطرة الورقة...». الحجوي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ٥٧: «... وعن اليمين غرفة كبيرة فيها عدد من الكراسي والموائد للكتابة والكاغد والدواة والأقلام، تكتب ما تشاء، ...»؛ ص. ١٢١: «... ثم تدخل لبيت النوم فتجد فيه سريراً أو سريرين للنوم ومقاعد للاستراحة لينة ومقاعد مائدة الكتابة...».

(١٠٥) انظر: عبد المجيد بن جلون، **جولات في مغرب أمس (١٩٠١)**، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٩٧٥، ص. ٣١: «... وعندما استخرجت مذكرتها لتسجل اسمه [باشا القصر الكبير] واسم الشريف الذي كان إلى جانبه تطلع إلى ما كتبته مستغربًا، ولما تناول القلم وطلب ورقة ليسجل فيها بدوره اسم الكاتبة والذين كانوا يرافقونها، لم يستطع أحد أن يعثر له على قطعة ورق وإن كان في محكمة، ...». راجع:

Macnab (F.), *A Ride in Morocco*, London, Edward Arnold, 1902, p. 98.

(١٠٦) ويسميها العمراوي بدار الطباعة، انظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٧٦- ٧٨ و ٧٩: «... وهذه المطبعة فوق جميع مطابع الأرض، وهي تقدر أن تخرج وتشيع أفكار الناس بكل اللغات... وهذه الآلة التي اتخذوها للطبع هي في كل الأمور عامة النفع معينة على تكثير الكتب والعلوم وأثرها في ذلك ظاهر معلوم». ويسميها الجعيدي في **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٩٠: بدار المطبعة، «... فدخلنا لبيت منها وجدنا في وسطه تأليف الإمام سيدي خليل بخط المطبعة بالعربي، والقاموس...»؛ وص. ١٩١: «وخرجت تابعا لأصحابنا، فدخلنا لدار المطبعة، وهي دار عظيمة في أسفلها طرق كثيرة يوصل بعضها إلى بعض، والداخل إليها وحده ممن لا خبرة له بها إذا توسطها لا أظنه يهتدي إلى طريق الخروج منها، لشدة كبرها. ومع ذلك فهي مقبية بالزاج في غاية النظافة، لا ترى فيها غبراء ولا بها شيئا يستقدر، ...».

(١٠٧) **رحلة الصفار**، ص. ٢٤٥؛ وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٤١: «... وقد أكثروا السؤال عن العلوم والكتب وسؤالهم عن علم الهندسة والهيئة والتنجيم واللغات أي لغة كانت، وعن كتب التاريخ والسير والحكم والأدب وكتب الحكايات، وقد ذكروا لنا أنهم ترجموا كتباً عديدة من كتب الإسلام باللغة الفرنصاوية... ويشترون من كتب المسلمين الكتب الرفيعة ويتغالون في ثمنها...»؛ و ص. ٨٢-٨٣: «ومنها دار الكتب: وهي دار كبيرة مشحونة بكتب جميع الأديان واللغات، حتى كتب اليهود. فيها كثير من كتب الإسلام مما كانوا جلبوه من خزانة مصر والإسكندرية... وقد ذكر لي الترجمان الذي كان معنا أسماء كتب عديدة غريبة من كتب التواريخ والفقه والحديث واللغة والتفاسير مما هو عندهم هناك مما نسمعه ولم نره وما لم نسمعه ولم نره، ذكر لي من أسماء كتب تواريخ المغرب سبعة أسماء لم نعرف منها واحدًا ...». **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٩٤- ١٩٥: «... وذكر لنا أن هذه الدار [دار الكتب المطبوعة] عندها من الكتب العربية القديمة ألفا كتاب، وإنما أوتي لنا منها بمصحف من القرآن العظيم، بقلم كوفي، ...»؛ لعله نفس المصحف الذي اطلع عليه الحجوي في بيت الكتب الخطية بخزانة الأمة، انظر: **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ٧٧: «... فعثرت على مصحف كريم عظيم الجرم مكتوب في رق الغزال بخط كوفي لا نقط فيه ولا شكل، يظهر أنه من مصاحف الصدر الأول قبل حدوث الشكل والنقط وفيه بعض البتر ...». وكان السفير المغربي الحاج محمد تميم قد زار المكتبة الملكية في باريز سنة ١٦٨٢، وتعجب من العدد الكبير الذي كانت تحتويه هذه المكتبة من الكتب العربية، ومن بينها مصحف... انظر:

Caillé (J.), *La Petite Histoire du Maroc*, Première Série : Des origines à Moulay Ismail, Casablanca, 1950, p. 191: «... A la bibliothèque royale, Temim fut étonné d’y voir un si grand nombre de livres arabes ; il y trouva un Coran, qu’il prit et porta sur son front, sur ses yeux, et sur sa bouche, avec des marques d’une vénération très particulière».

وقبل سفارة تميم، أطلع عالم فرنسي أحمد بن قاسم الحجري "أفوقاي" خلال زيارته لباريز على جملة من الكتب العربية، من بينها القرآن، وقانون ابن سينا في الطب، وكتاب أقليدس في الهندسة، وكتبا في النحو مثل الأجرومية، والكافية، وكتاب بالعربية فيه مناظرات بين مسلم ونصراني وفي الأديان، وغير ذلك من الكتب...، انظر: **رحلة أفوقاي الأندلسي**، ص. ٥٣-٥٤.

(١٠٨) **رحلة الصفار**، ص. ١٩٧، ٢٤٥: «... ولكن كل شيء عندهم مدون في الكتب». أورد الجعيدي في رحلته حالة أحد أفراد

البعثة المغربية في باريز الذي لم يكن يعرف قراءة الأرقام، انظر: **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٤٨: «... حتى إني ذهبت مع الأمين ذات يوم للصالة التي بها أصحابنا لتفقد حال أحدهم كان شاكيا، فوجدنا أحدهم من خدامهم في الطريق التي بها صالتهم متحيرا، يريد من يرشده إليها بعدما كان خرج منها قريبا لوطر. وله هناك نحو ثلاثة أيام، والعذر له، لأنه لا يعرف الحساب ليهتدي بها إلى رقم محلهم». الحجوي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ٥٢-٥٣: «... وأساس ذلك كله هو العلم، فالتعلم عندهم إجباري على الرجال والنساء، ... ولذلك ترى قدرًا من العلم اشترك فيه الذكر والأنثى، والغني والفقير. بذلك القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم الغير متمدنة التي لا يعرف غالب أفرادها كتابة ولا أدبًا ولا حسابًا، ولا، ولا... كأهل المغرب الأقصى مثلاً».

(١٠٩) الواثقة في الأصل، والبيتان للإمام الشافعي، وهما من الكامل، لم يذكر المحققان صاحبهما، انظر: **ديوان الإمام الشافعي**، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٥، ص. ٨٣-٨٤.

(١١٠) في الأصل: فمن الحماقة أن تصيد غزالة   وتتركها بين الخلائق طالقه.

(١١١) **رحلة الصفار**، ص. ١٦٤-١٦٥. وانظر على سبيل المثال الإحصائيات التي أوردها الشدياق بخصوص باريز بالنسبة لعام ١٨٤١: **كشف المخبا في فنون أوربا**، ص. ٢٨٤: «... وفي سنة ١٨٤١ ولد فيها ٢٩,٩٢٣، ومات ٢٦,٠٢٨، وتزوج ٨٩٦٢، وكان عدد النغول ٩٨٤٠، وفيها نحو ٨٠,٠٠٠ خادم. وقال آخر: كان أهلها في سنة ١٨٥٦: ١,١٤١,٣١٦...».

(١١٢) **رحلة الصفار**، ص. ١٩٨؛ وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٣٩: «... ولا شك أنهم يتأدبون بتلك الأخلاق ويتعلمونها في الكتّاب ...».

(١١٣) **رحلة الصفار**، ص. ١٩٧. وهذه الفقرة منقولة عن **تخليص الإبريز**، ص. ٨٣، وقد جاء فيه: «وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة في الكتب حتى الصنائع الدنيئة، فيحتاج الصنائعي بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لإتقان صنعته، وكل صاحب فن من الفنون يحب أن يبتدع في فنه شيئا لم يسبق به، أو يكمل ما ابتدعه غيره».

(١١٤) **رحلة الصفار**، ص. ١٦١؛ وهذا الكلام جزء من عجز آخر أبيات للطرطوشي ينهي فيها عن السفر، ومطلعها:

تخلّف عن الأسفار إن كنت طالباً   نجاة ففي الأسفار سبع عوائق
وهذا مـقـالي والسلام مؤبـد   وجرب ففي التجريب علم الحقائق

وانظر: **أسبوع في باريس**، ص. ١٣: «... قيل للمهلب بن أبي صفرة : بما أدركت ما أدركت ؟ قال : بالعلم. فقيل له: إن غيرك أعلم منك، قال: ذاك علم حمل، وهذا علم استعمل».

(١١٥)- **رحلة الصفار**، ص. ١٩٧.

(١١٦)- ألم يقل الإمام الشافعي (من البسيط):

كل العلوم سوى القرآن مشغلة   إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه: قـال، حدثنا   وما سوى ذاك وسواس الشياطين

(١١٧) **رحلة الصفار**، ص. ٢٥٥. يقسم محمد الطاهر الفاسي العقل إلى قسمين، ظلماني ونوراني، فالظلماني به يدركون هذه الأشياء الظلمانية [القوة البخارية]، ويزيدهم ذلك توغلا في كفرهم، والنوراني به يدرك المومن المسائل المعنوية، كالإيمان بالله وبملائكته ورسله...، انظر: **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية**، تحقيق وتعليق محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس، ١٩٦٧، ص. ٢٨. وهذا ما دفع آرثر ليرد بعد زيارته للمغرب سنة ١٨٧٢، إلى القول بأن «المغربي مغرور لأنه جاهل، فهو يعتقد أنه هو وبني قومه أرقى من جميع أمم العالم، وهو يعترف بمخترعات أوربا وتقدمها، ولكنه اعتراف مصحوب بالاحتقار، فإن القطار والبرق قد يكونان ضروريين بالنسبة للأوربيين، أما هو فلا رغبة له أكثر من أن يعيش ويموت كما عاش أبوه ومات، ...»؛ انظر: عبد المجيد بن جلون، **جولات في مغرب أمس (١٨٧٢)**، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٩٧٥، ص. ١٢١. وراجع:

Leard (A.), *Morocco and the Moors*, London, 1876, pp. 222-223.

(١١٨) **رحلة الصفار**، ص. ١٣٢.

(١١٩) نفسه، ص. ٢٣٥: دار الفزك في باريز التي هي " دار علومهم ". وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٦٨: «... وفي داخله [جنان النباتات والوحوش] جميع ما نعرف وما لا نعرف من الحيوانات الإنسية وغير الإنسية... وفيه حيوانات إنسية ووحشية لم نعرفها ولم نجد من يعرف اسمها بالعربية...» ص. ٧١: «... رأينا فيه كل نوع من الطيور ما عرفنا وما لم نعرف من الإنسية والبرية...»؛ ص. ٨٤: «... ورؤوس تلك الأسلاك [أسلاك التلغراف] مغموسة في أقداح صغيرة من الزجاج فيها ماء مدبر فيه الحديدة الزرقاء وروح التوتية وأشياء لم نعرفها...». **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٩١: «... وسموا لنا [في دار المطبعة] خطوطا كثيرة ما سمعتها قط، وعددت هناك ما يزيد على العشرين خطا، فما استوعبت نصفها».

(١٢٠) **رحلة الصفار**، ص. ٢٥١؛ وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٧٢: «وهناك محل آخر ذكروا لنا أن فيه أجسادا من أجساد الآدميين مشرحة، يتعلم فيها الأطباء علم التشريح، تنزهنا عن رؤيتها فلم نذهب إليها،...».

(١٢١) **رحلة الصفار**، ص. ١٩٦؛ وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٩٤: «... وقد بلغنا أن لهم دارًا يتعلمون فيها كيفية التجارة كما يتعلمون الكتابة والحساب وغير ذلك، فيدفع الرجل ولده لتلك

الدار على جعل سنوي يعطيه عليه، ومن لم يكن له مال، فالمخزن يؤدي عنه...».

(١٢٢) **رحلة الصفار**، ص. ٢٥١.

(١٢٣) نفسه، ص. ١٩٧.

(١٢٤) نفسه، ص. ٢١٨. وانظر : سعيد بنسعيد العلوي، **أوربا في مرآة الرحلة**، ص. ٥١: «... كانت كل هذه المعارك [هزيمة إيسلي وحرب تطوان] تعني تلقي صدمة مفادها الشعور بالعجز وضعف الحيلة وإدراك أن البحر الأبيض المتوسط لا يفصل دار الإسلام عن دار الكفر فحسب بل إنه يفصل بين عالمين اثنين متغايرين : صار أحدهما إلى أشكال من القوة والتفوق، بحيث لا يملك الآخر سوى التسليم بواقع الضعف والتأخر ؛ كما كانت تلك المعارك تعني حدوث صدمة دلالتها اكتشاف الحاجة إلى ضرورة «الآخر» واكتشاف ما عنده من أسباب القوة، من قصور النظر أن يقول المرء عنها إنها قوة مادية وكفى: إنها صدمة تفيد وجوب مراجعة معنى المعرفة والعلم».

(١٢٥) **رحلة الصفار**، ص. ١٨٥. وانظر : **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٤٤ :«... وهي [طريق الحديد] من عجائب الدنيا التي أظهرها الله في هذا الوقت على أيديهم تحير فيها الأذهان ويجزم الناظر إليها بديهة أن ذلك من فعل الجان وأنه ليس في طوق إنسان» ؛ ص. ٤٧: «ولهم ترتيب عجيب في كيفية سيره ووقوفه في المدن التي يمر بها في الطريق...» ؛ ص. ٤٨: «وبالجملة فما سمعت أذني ولا رأت عيني ولا طالعت في كتب التواريخ بأعجب ولا أغرب من هذا البابور... وأعجب منه سلك الإشارة...» ؛ ص. ٦٨: «وإلا فأمورهم كلها عجب يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا» ؛ ص. ٧٦: «... وهذا المحل [دار السكة] من أعاجيب الدنيا...» ؛ ص. ٨٦: «وهذه الآلة مما يذهل ذهن العاقل ويستريب فيه السامع والناقل، وكل ما أمعنت النظر فيها، لم أجد عبارة تشتمل على حقيقتها وتستوفيها. على أن كثيرًا مِمَّنْ ينظر إليها لا يعرف كيفية الدلالة عليها، بل ولا يحسبها إلا من طريق السحريات، ويكذب كلام ناعتها، ويعده من الاستهزاء والسخريات. وقد كان معنا بعض المغفلين، فلما رآه واستعظم باطن أمره ومرآه، سألناه عما فهم منه واستخبرناه بأي عبارة يعبر عنه، فقال لنا أنه مثل خبر الأعراب الذين يخطون في الرمل ويضربون الفال في قريعة الأنبياء، ويعبرون عما في قلبك من الأنباء. كلا، بل هو من الأمور المذهلة، والأشياء المشكلة والأدواء المعضلة، ... وفيه أدل دليل على أن أمورهم بلغت الغاية وتجاوزت النهاية...». **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٨٨: «... وهذا اللويز الذي يقلبه هؤلاء، ويعزلون الجيد منه لا يكتفي بهذا التقليب، بل يجمع هذا الجيد ويوزن في مكينة أخرى حيرت منا الأذهان، وصار كل واحد منا كالحيوان الولهان، وهي في غاية اللطافة والظرافة والنظافة...»، ص. ١٨٩: «... وهنا تعجبت عقول الحاضرين من ذلك...»، ص. ١٩٦: «ومن العجب أنهم إذا أرادوا إطفاء الثريات وغيرها من جميع الضوء الذي في الدار، فيدار لولب واحد فتنطفئ كلها دفعة واحدة، ...». محمد الطاهر الفاسي، **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية**، ص. ١٩: «والحاصل، أنهم - دمرهم الله- يستعملون أشياء تدهش، سيما من رآها فجأة، وربما اختل مزاجه من أجل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...». الحجوي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ١٣٥: «... وإن عجائب أوروبا كثيرة، وهي في الحقيقة ليست عجائب أوروبا بل عجائب العلم، وغرائب اختراعات عقل البشر النبيه المتيقظ. ولولا أني التزمت ألا أخبر إلا بما رأيت لقصصت عليكم من عجائب أوروبا أو العلم، وخصوصًا في لندرة وباريز اللذان هما ينبوع الحكمة الأوروبية». سعيد بنسعيد العلوي، **أوربا في مرآة الرحلة**، ص. ٥٦: «لا شك في أن أكثر ما كان يدعو إلى العجيب ويستدعي الغرابة في مشاهدات مسافرينا المغاربة ومدوناتهم هو ما يرجع إلى التقنيات والاختراعات الحديثة، تلك التي رأى البعض منهم أنها تشبه أمور السحر والشعوذة».

(١٢٦) **رحلة الصفار**، ص. ١٨٨: «وتارة يكون لعبهم المذكور برقص تلك الجواري، فيمسكن بأيدي بعضهن بعضا ويأخذن في رقص عجيب».

(١٢٧) نفسه، ص. ١٨٥.

(١٢٨) نفسه، ص. ٢٣٣.

(١٢٩) نفسه، ص. ٢٣٥، وانظر: **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٦٠: «"فابريكة أواني المعدن" ... وحين الخرط تراها ترتفع وتنزل فتخرج الدوائر التي بها على شكل البيضة موازية لها، من غير انحراف ولا تفاوت، ... وهذا من العجب والأمر المستغرب». **أسبوع في باريس**، ص. ١١: «وقضينا بهذه العاصمة العصماء أسبوعًا شاهدنا فيه من عجائب المخترعات وغرائب المبتكرات ما زادنا معرفة بعظمة العلم...».

(١٣٠) **رحلة الصفار**، ص. ٢٣٣.

(١٣١) نفسه، ص. ١٦٨.

(١٣٢) نفسه، ص. ١٦٤.

(١٣٣) نفسه، ص. ٢٢٦. وانظر وصف الحجوي لخزانة الأمة في باريز: **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ٧٥: «... فذهبت إليها ومعي بعض أعضاء الوفد ممن لهم ولوع بالكتب. فدخلناها ورأينا ما يدهش من هذا النوع، وكيف لا يدهش الإنسان إذا رأى ما ينيف على ثلاثة ملايين من الكتب المطبعية وما أناف عن مائة ألف كتاب خطية؟ وقالوا: إن العدد أكثر من ذلك. ... وهي آية في الاتساع والضخامة»، ص. ٧٦: «.. وإن اللغات الموجودة كتبها في هذه الخزانة تبلغ اثنتين وخمسين لغة».

(١٣٤) **رحلة الصفار**، ص. ٢٢٦. وانظر: **رحلة أفوقاي الأندلسي**، ص. ٥٣: «... ومن جملة الكتب جاء بالكتاب العزيز، فسألته أين اتصلت بهذا القرآن، قال: كنت بمدينة مراكش وهناك تعلمت نقرأ بالعربية، ... فتغيرت حين رأيت كتاب الله تعالى بيد كافر نجس، ...». وتبقى رحلة الصفار كسفارة المكاسي من قبله، «رحلة أو انتقال مؤقت من دار الإسلام إلى دار الكفر»: سعيد بنسعيد العلوي، **أوربا في مرآة الرحلة**، ص. ٣٥.

(١٣٥) **رحلة الصفار**، ص. ١١١-١١٢، ٢٣٣.

(١٣٦) نفسه، ص. ٢٦٥. وانظر: سعيد بنسعيد العلوي، **أوربا في مرآة الرحلة**، ص. ٣٦-٣٨: «بلد النصارى دار كفر وضلال».

(١٣٧) انظر: مليكة نجيب، **المرأة في الرحلة السفارية المغربية** خلال القرنين ١٨ و١٩، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٤، ص. ١٩٤.

(١٣٨) **سورة آل عمران**، الآية: ١٩.

(١٣٩) **سورة آل عمران**، الآية: ٨٥.

(١٤٠) **سورة النساء**، الآية: ١٥٧.

(١٤١) **سورة الروم**، الآية: ٧. «وكأن النص القرآني يشفع للمغاربة/المسلمين تأخرهم الدنيوي في مقابل تمسكهم بالعلوم التي تنجي من عذاب الآخرة...»، انظر: يحي بولحية، **المغاربة في أوربا خلال القرن التاسع عشر**، **دورية كان التاريخية**، العدد ٢٥، سبتمبر ٢٠١٤، ص. ١٢٢.

(١٤٢) **سورة التوبة**، الآية: ٣٠.

(١٤٣) **رحلة الصفار**، ص. ١٤٨ ؛ وانظر : **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٤٩ :«... فيا خسارة تلك المنازل البهية، ويا شوم تلك الساحات الزهية، قد كدر جوها بسكانها، ولبست من الحداد غاية إمكانها، وكيف لا وعمارها ما بين عابد صليب وقسيس وساع في طاعة إبليس...» ؛ ص. ٨٦: « ... فمعلوم أنه ما بلغ شيء الغاية إلا ورجع، ولا نال منتهى الصعود إلا اتضع، فإنهم يقولون اليوم مَن أشد منا قوة، ونسوا مهلك ثمود وعاد وإرم ذات العماد، ولم يعلموا أن سطوة الله لهم بالمرصاد، وأن أمره إذا نزل بقوم فما له من دافع ولا صاد » ؛ ص. ٩٢: «.. وما تم إلا زخارف الحياة الدنيا وبهرجتها وسرابها الزائل وترهتها، ولكن في الاطلاع على هذه الأمور ومعرفتها معرفة قدر نعمة الله على المؤمنين بتخليصهم من فتن الافتتان بزينتها والاغترار بعرضها الفاني الموجب للإعراض عن الله تعالى مع تحقق مصير هؤلاء إلى غضب الله وعذابه المقيم...». مليكة نجيب، **المرأة في الرحلة السفارية المغربية** خلال القرنين ١٨ و١٩، ص. ٣٢: «أنتج السرد الرحلي صورا تنبني على أن الذات طاهرة ومتفوقة وتمتلك الحقيقة المطلقة والأخلاق الرفيعة، وتم تصور الآخر من خلال قيم تم تنسيقها لتكون في تعارض مع القيم الإسلامية: فهو كافر، ضال، حليف للشيطان في سلوكه». وانظر: تعليق سعيد الفاضلي على رحلة محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ١٩٠: «لقد اعتدنا في الرحالة المغاربة السابقين [للحجوي] نفورا من الغرب وحضارته وإنكارا لجدواها واستنجادا بالدين، في فهم سطحي لمقاصده، لإثبات وهم تفوقهم، أو لبس مسوح الزهد والإعراض عن الأخذ بأسباب الدنيا لكونها فانية،...». حسين محمد فهيم، **أدب الرحلات**، ص. ١٧٧: «لقد شكل "الغير" غير المسلم، بصفة عامة، في ذهنية أغلبية المسلمين شيئا مذموما لا يستأهل إلا الوصف بأردإ الألفاظ، خصوصًا إذا كان لدى هذا "الغير" عادات وتقاليد تخالف ما تعود عليه الرحالة وألفوه». ولم تخف ملامح هذا التعصب في الدين على بعض الفرنسيين الذين لازموا أعضاء البعثات السفارية المسلمة، نذكر من بينهم غيزو (M. Guizot) الذي كتب في مذكراته ما يلي:

Guizot (M.), *Mémoires pour servir à l'histoire de mon temps*, t. VII, Paris, 1865, p. 240: «... J'ai trouvé en eux des hommes très divers, placés à des degrés inégaux de civilisation et de lumières, et souvent animés de desseins contraires. Mes rapports avec eux tous ont abouti à me donner, du monde musulman en contact avec le monde chrétien, la même idée et à me faire pressentir le même avenir. *Il n'y a rien de sérieux à espérer du monde musulman, ni pour sa propre réforme, ni pour les chrétiens que le malheur des événements a placés sous ses lois* ».

(١٤٤) ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: **سورة الإسراء**، الآية : ٤٣. وفسرها بن كثير كالتالي: «أي هؤلاء **المشركون المعتدون الظالمون** في زعمهم أن معه آلهة أُخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تعاليًا كبيراً، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد».

(١٤٥) **رحلة الصفار**، ص. ١٥٠. وانظر: مليكة نجيب، **المرأة في الرحلة السفارية المغربية** خلال القرنين ١٨ و ١٩، ص. ١١: «وكان السفر من بلاد الإسلام إلى باقي البلدان، قد أثار جدل العلماء المسلمين بين الرفض والترخيص؛ بين تعليمات إسلامية أجازت الاقتصار على السفر إلى المناطق الإسلامية، وحرمت التوجه إلى الآخر الكافر الذي يجب تجنبه»، وص. ١٩٤- ١٩٥: «... في هذا الوقت كان المغرب حبيس ثقافة تعتبر السفر إلى بلاد الكفر حرام على المسلم، ورغم تعدد البعثات المغربية إلى أوروبا في القرنين ١٨ و ١٩، إلا أنها لم تخلص من ثقافة التعارض بين دار الإسلام ودار الحرب».

(١٤٦) **رحلة الصفار**، ص. ١٩٩.

(١٤٧) الهدف من استخدام الرحال ذخيرته الأدبية أو الفنية أو الثقافية هو تزيين رحلته، كأن يزودها ببعض محفوظه من الشعر، [...] أو يضمنها آيات قرآنية وبعض الأحاديث النبوية، إلخ؛ انظر: ناصر عبد الرزاق الموافي، **الرحلة في الأدب العربي**، ط. ١، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٩٥، ص. ٧٨.

(١٤٨) **رحلة الصفار**، ص. ٢٢١. لم يذكر المحققان اسم صاحب هذا البيت؛ وهو من الطويل، ورد في **شرح التصريح على التوضيح** للأزهري، تحقيق محمد باسل عيون السود، ج ٢، دار الكتب

العلمية، بيروت، ٢٠٠٠، ص. ٥٥. وقد نسبه العيني إلى عمر بن ربيعة المخزومي (انظره بـ **هامش الخزانة** : ٦٢٩/٣)؛ راجع : **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك** المسمى "منهج السالك إلى ألفية ابن مالك"، حققه وشرح شواهده، وأتم مباحثه محمد محيي الدين عبد الحميد، ج ٤، ط ٢، القاهرة، ١٩٤٦، ص. ١٢٤، حيث وصفت الخصور بدقاق وليس "رقاق" كما أوردها الصفار. ولم يرد هذا البيت في ديوان الشاعر المذكور على هذا الشكل، بل ورد كالتالي:

أسيلات أبدان دقاق خصورها — وثيرات ما التفت عليه الملاحف

أسيلات أبدان: طويلات الجسم ناعمات البشرة. دقاق الخصور: مهفهفات الخصور. الوثيرات: السمينات. ما التفت عليه الملاحف: أراد بالملاحف المآزر، كناية عن ضخامة العجيزة. انظر: **ديوان عمر بن ربيعة**، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه د. محمد فايز، ط. ٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦، ص. ٢٣٢.

(١٤٩) لم يذكر المحققان اسم صاحب هذه الأبيات التي مطلعها:

ترى متى من فتور اللحظ ينتشط — من قلبه بحبال الشعر مرتبط

ولم يرد الصفار منها الأبيات الثلاثة التالية:

وصدره الرحب قد عانقته سحراً — والقلب منبعث الآمال منبسط
وفيه تلك النهود المشتهاة ترى — رمانها فيه قلبي أمره فرط
إن الصواب لتعجيل السرور فقم — قبل الفوات فأوقات الهنا غلط

انظر: **المستطرف** للأبشيهي، المجلد الثاني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٣، ص. ٢١٢.

(١٥٠) ولقد افتتن جعفر الناصري، صاحب "**الرحلة الباريسية**" أيضا بغواني باريز ووصف ضمور خصورهن وسمن أردافهن في شعره:

واذكرْ محاسنَ باريسٍ وما جمعت — مما يُسلّيك عن أهلٍ وعن وطن
كم في جوانبها من كل آنسة — بين الحسان أتتْ كالبدر في الدُّجَن
فالورد من خدّها استعار حُمْرتَه — والشمسُ في وجهها تجري مَدَى الزمن
في طَرْفها دَعَجٌ قد زانه غَنَجٌ — وثغرُها الجوهريْ دُرٌّ بلا ثمن
والقَدُّ يحكيه غصنُ البان في مَيَسٍ — وخصرها ضامرٌ، والردف ذو سِمَن

انظر: محمد بن العباس القباج، **الأدب العربي في المغرب الأقصى**، ج ١ و٢، ط ١، ١٩٢٩، ص. ١١١.

ولعل الصفار لم يحط بعقلية "الإفرنج" الذين لا شيء أفظع عندهم، حسب الشدياق، «من أن يروا في قصائد المدح تغزلا بامرأة ووصفها بكونها رقيقة الخصر، ثقيلة الكَفَل، نجلاء العينين، سوداء الفرع وما أشبه ذلك، فشعرهم كلهم خصي، وأفظع منه التشبب بغلام، وأقبح من هذا وذاك نسبة شيء من صفات المؤنث إلى المذكر كقول الشاعر كأن ثدياه حُقّان...»؛ انظر: **كشف المخبا في فنون أوربا**، ص. ٣٨١.

(١٥١) لم يذكر المحققان اسم صاحب هذا البيت، ومطلع أبيات أبي الحسن الجزار:

في خده من بقايا اللثم تخميش — وبي لتشويش ذاك الصدع تشويش...

انظر: **المستطرف**، المصدر المذكور، ص. ٢١٢.

(١٥٢) لم يذكر المحققان اسم صاحبها.

(١٥٣) في الأصل: هذي؛ انظر: **المستطرف**، المصدر المذكور، ص. ٢٢٦؛ والحسن اليوسي، **زهر الأكم في الأمثال والحكم**، ج ١، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الثقافة، ١٩٨١، ص. ١٧٤، الذي لم يذكر صاحب البيتين، وإنما اكتفى بقوله: «وقال الآخر».

(١٥٤) نأت في: **زهر الأكم**، نفسه.

(١٥٥) **رحلة الصفار**، ص. ٢٢٣. بدا الصفار لقائد السفينة (Le Méteore) التي أقلت البعثة المغربية من تطوان إلى مرسيليا، الفرنسي (Geoffroy)، «شديد التحفظ، وأقل بشاشة وانشراحا مما كان عليه الآخرون». ويبدو أن هذه الرحلة مكنت الصفار من "إزالة الحجاب عن ذاته"، وعملت على تغيير الحالة التي كان عليها الرحالة قبل ذهابه، فقدمت صورة أخرى عنه. لقد عمل الصفار على التخلص من الرسميات ومن صرامة نسقه وأنصت للذات وميولاتها ورغباتها، خصوصا بُعد المغامرة. ألم يرد في **لسان العرب** بخصوص مادة "سفر": «وسمي السفر سفرا لأنه يُسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم فيظهر ما كان خافيا منها»؛ انظر: بوشعيب الساوري، **الرحلة والنسق**، ص. ١٢٦-١٢٧. وراجع: **إحياء علوم الدين** للغزالي، ج ٢، ص. ٢٤٥: «وإنما السفر هو الذي يسفر عن أخلاق الرجال وبه يخرج الله الخبء في السماوات والأرض وإنما سمي السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق ولذلك قال عمر رضي الله عنه للذي زكى عنده بعض الشهود هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم أخلاقه فقال لا فقال ما أراك تعرفه».

(١٥٦) **رحلة الصفار**، ص. ٢٣٣.

(١٥٧) ليلة الأربعاء ١٨٤٦/١/١٤.

(١٥٨) سورة النور، الآية: ٢٩؛ وانظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٩٠: «... وقد عرضوا علينا الذهاب لبعض الكمديات فاعتذرنا في واحدة فيها الغناء والرقص ...، وبأنه يحرم علينا في ديننا النظر إلى النساء التي يرقصن، ...».

(١٥٩) لم يذكر المحققان اسم صاحبهما. ووصف الجعيدي، هو الآخر، الباريزيات بالغزلان والأقمار، وقد سلب عقله نور حسنهن، وتمنى أن يجدن له بوصالهن، وهام بهن وأنشد قائلا:

بالله عرج على تلك الجنان ولا — تحد عنها فما عليك من حرج
وانظر إلى الفلك من الأنهار سابحة — تصيد ريم البيدا تضيء كالسرج...

راجع: **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، ص. ١٦٣-١٦٤؛ ٣١٨-٣١٩. الحجوي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، ص. ٨١: «... وفي كل وقت أتيت هذه الغابة [غابة بولون] وجدتها تسرح فيها غزلان الإنس، وترتع فيها صواحب الألبسة الجميلة والمراكب الفارهة والجمال الفاتن... وبالجملة جمعت جميع المحاسن، فلا يرى فيها إلا مفتون أو فاتن، ...»؛ ص. ١٢٥: «... ولكن بساتين باريز ترتع فيها غزلان إنسية، وتوجد فيه أكثر من لندرة بكثير». وبالنسبة للمشارقة، انظر على سبيل المثال: أحمد زكي، **السفر إلى**

المؤتمر، المطبعة الكبرى الأميرية، ط ٢، القاهرة، ١٨٩٤، ص. ٩٣: «[...] وكل واحدة من هذه الجواري المملكات المالكات تبذل غاية جهدها ومنتهى فنها لكي تتجلى في مظهر أنيق رشيق يسبي ويصبي، ثم لا تكتفي بخطف العقول والأرواح، بل هي فوق ذلك فتاكة فتانة (والفتنة أشد من القتل)...» ؛ وص. ٣٤٥.

(١٦٠) انظر وصفه في:

Guizot (M.), *op. cit.*, pp. 240- 241 : «Le Marocain Sidi-Mohammed-ben-Achache était un jeune Arabe d'une figure charmante, grave, modeste et douce, de manières élégantes et tranquilles, attentif à se montrer scrupuleusement attaché à sa foi, respectueux avec dignité et plus préoccupé de se faire respecter et bien venir, lui et le souverain qu'il représentait, que d'atteindre un but politique déterminé…».

وعن أهمية سفارته، انظر:

Miège (J.-L.), *Le Maroc et l'Europe* (1830-1894), T. II, Paris, 1961, p. 204 ; 205, note 1: «L'importance de cette ambassade ne semble pas avoir été suffisamment soulignée. Achache fut à son retour le meilleur avocat de la cause française auprès du Maghzen».

(١٦١) **رحلة الصفار**، ص. ٢١٥. وانظر بخصوص المداراة: **رسائل الجاحظ**، ج ١، "رسالة المعاش والمعاد"، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٦٤، ص. ١١٨: «وأعلم أن الذي تُعامل به صديقك هو ضد ما تعامل به عدوك. فالصديق وجه معاملته المسالمة، والعدو وجه معاملته المداراة والمواربة، هما ضدان يتنافيان، يفسد هذا ما أصلح هذا، وكلما نقصت من أحد البابين زاد في صاحبه، إنْ قليلٌ فقليل، وإن كثيرٌ فكثير»؛ و"كتاب فصل ما بين العداوة والحسد"، ص. ٣٥٧: «وكان عروة بن المغيرة يقول:" شر العداوة ما سُتر بالمداراة، وأشقاها للأنفس ما قُرع بمثلها باديا»

(١٦٢) نفسه، ص. ٢٢٨.

(١٦٣) نفسه، ص. ١٦١.

(١٦٤) انظر: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، ص. ٤٣: «... وكنا نلمح في عينيه [الترجمان Scheffer] بغض المسلمين أكثر من غيره، ويظهر لنا قبح طويته عند بره، ولعل ذلك من اطلاعه على كتبنا، ومعرفته أن بغضهم من قواعد ديننا ومذهبنا، ولكنا كنا نجامله وقلوبنا تلعنه، ونظهر له البشاشة والبشر فيما نعلنه...»؛ ص. ٩٢-٩٣: «... فإنا رأينا أناسا من العباد عقولهم كعقولنا، حكم عليهم بذلك [غضب الله وعذابه] وأنقذنا منه بفضله وكرمه، وكره لنا كفرهم وفسوقهم وجبلنا على عداوة حالهم ظاهرا وباطنا...».

(١٦٥) **صحيح البخاري**، كتاب الأدب، "بَابُ الْمُدَارَاةِ مَعَ النَّاسِ": «وَيُذْكَرُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ، وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ».

(١٦٦) **رحلة الصفار**، ص. ٢١٦.

(١٦٧) نفسه، ص. ٢١٥. لم يذكر المحققان اسم صاحب هذا البيت.

(١٦٨) لم أقف على اسمه.

(١٦٩) يتعلق الأمر بعلي بن كثير، انظر: **ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا** للشهاب الخفاجي، نسخة رقمية: www.al-mostafa.com، ص. ٢٢٩. وهذه الأبيات تختلف في الأصل بعض الشيء عن تلك التي أوردها الصفار الذي لم يعرّف بصاحبها. يقول صاحب **ريحانة الألبّا**: ومما أنشدته لعلي بن كثير قوله:

صحبت الأنام فألفيتهم ... وكل يميل إلى شهوته
وكل يريد رضى نفسه ... ويجلب نارا إلى برمته
فالله درّ فتى عـارف ... يداري الزمان على فطنته
يجازي الصديق بإحسانه ... ويبقي العدو إلى قدرته
ويلبس للدهر أثوابه ... ويرقص للقرد في دولته».

(١٧٠) فتى في الأصل.

(١٧١) يداري في الأصل.

(١٧٢) قدرته في الأصل.

(١٧٣) أثوابه في الأصل، محل "ثوب الرضى".

(١٧٤) ويرقص في الأصل.

(١٧٥) يتعلق الأمر بأبي نصر عبد العزيز بن عمر بن نُباتة، انظر: **تاريخ مدينة السلام** للخطيب البغدادي، المجلد الثاني عشر، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠١، ص. ٢٤١-٢٤٢.

(١٧٦) بالماء في الأصل.

(١٧٧) **رحلة الصفار**، ص. ٢١٥ – ٢١٦.

(178) - M. de Montaigne, ***Essais***, Texte original de 1580 ; T. 1, Bordeaux, 1870, p. 46: «J'observe en mes voyages cette practique, pour apprendre tousjours quelque chose par la communication d'autruy (qui est une des plus belles escholes qui puisse estre), de ramener tousjours ceux avec qui je confere, aux propos des choses qu'ils sçavent le mieux». Traduction en français moderne de G. de Pernon (2008), p. 75 : «Au cours de mes voyages, afin d'apprendre toujours quelque chose par les conversations que j'ai avec les gens (ce qui est une des meilleures écoles qu'on puisse trouver), j'ai pour habitude de ramener toujours ceux avec qui je parle aux sujets qu'ils connaissent le mieux».

(١٧٩) التي، على حد تعبير عبد الرحمن الجبرتي، «... ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا»، انظر: **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ج ٣، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨، ص. ٦٠. وانظر: محمد عابد الجابري، **المغرب المعاصر**، الخصوصية والهوية، الحداثة والتنمية، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص. ١٦: «[...] إن الذين منهم [السفراء والمبعوثين المغاربة لدى الدول الأوربية] سجلوا ارتساماتهم عما شاهدوه في أوربا من مظاهر الرقي والتقدم قد اعتبروا ذلك من قبيل إمهال الله للكفار وبرهانا منه على قدرته على إجراء الأمور عكس ما ينبغي أن تكون عليه».